مظفر النوّاب
شاعر المعارضة السياسية
والغضب القومي

موسوعة أعلام الشعر العربي

مظفر النوّاب

شاعر المعارضة السياسية والغضب القومي

إعداد ودراسة: هاني الخيّر

أعلام الشعر العربي /مظفر النواب/

شاعر المعارضة السياسية والغضب القومي

إعداد: هاني الخير

سنة الطباعة: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

أعتقد بأنني لم أقل بعد الشيء الذي أريده حتى الآن.

في كل تجربة جديدة من الكتابة، أقترب منه أكثر، أجرب دائما، ولا أتردد عندما أجد لديّ إمكانية لبناء جديد، حتى لو كان يصطدم بغرابته من أعتاد لونا معينا من شعري.

الشاعر: مظفر النواب

إضاءة

مميزات أسلوبية في شعر مظفر النوّاب

الشاعر العربي الكبير مظفر النوّاب، حالة متميزة واستثنائية في ديوان الشعر العربي المعاصر، له تفرده، وطلقاته الشعرية النافذة، بل وصراخه الحاد الصادق في وجه الأشرار والأنذال، وأصحاب الضمائر الميتة الذين باعوا أرواحهم للشيطان الرجيم، لقاء مكاسب آنية هزيلة، لا تتعدى سوى زيادة أموالهم المكنوزة في المصارف الأجنبية، ثم يفقدونها فيما بعد، ولهوهم الترف على حساب المجموع، دون الاكتراث بالمصلحة الوطنية، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمصلحة القومية العليا، والتي ستنعكس سلباً أم إيجاباً على الأجيال العربية القادمة.... لذلك لا غرابة أن يتحول المقطع الشعري عند شاعرنا المبدع إلى سكاكين حادة، تمزق الأقنعة وتكشف الزيف أينما وجد، وتعري الألاعيب البهلوانية التي يقصد منها الخداع والتضليل، والتي يؤديها على مسرح الحياة (شلة) من الآفاقين، بهدف شلّ إرادة الأمة في الانطلاق الحضاري والمعرفي وصولاً إلى قمم الكرامة والمجد والشموخ الوطني.

مظفر النواب... شاعر متعدد المواهب متفوق في كل موهبة منها. فهو رسّام، وموسيقي، ومؤلف مسرحي، ويمتاز بصوت غنائي جميل، وهو مثقف على درجة رفيعة ومدهشة من الثقافة العربية والعالمية.. كما أنه أحد فرسان الكلمة الواعية.. الهادفة.. المسؤولة.

أما في رحاب الشعر.. فهو يكتب الشعر باللهجة العراقية العامية. وباعتراف الكثير من الشعراء الشعبيين العراقيين، فهو معلمهم وقدوتهم ومثلهم الأعلى:

مرّينه بيكُمْ حَمَدْ واحْنَهْ إبغطار الليلْ

واسمعنه دك إكهوه

وشمينه ريحة هيل

يا ريل صيح صيحة عشْك يا ريل

هودر هواهم وَلَكْ

حذر السنابل كِطَهْ

يابو محابس شَذِرْ خزامات

يا ريل بلله ابغنج من تجزي بآم شاماتْ

ولا تمشي مشية هجر

كلبي بعد ما مات

وهودر هواهم ولكْ حدْر السنابل كطهْ

إذن مظفر النواب.. عدة عبقريات فذة في رجل واحد، وطاقة إبداعيّة خلاّقة، تدفعه بوعي شديد إلى مزاولة كثير من الفنون والعلوم الراقية الصعبة، كعلم ما وراء الطبيعة والخوارق النفسية والظواهر المدهشة. وهو الوحيد بين القمم الشعرية المعاصرة، الذي لم يكتب قصيدة مدح في أحد، بما فيه – هذا الممدوح من مناقب وسجايا. أو بما ليس فيه من مروءات وسجايا نبيلة. كما واستطاع، خلال مسيرته الشعرية أن يتخلص من المنبرية والمباشرة، وصولاً إلى شعر نضالي إنساني، يخاطب الوجدان والعقل والمشاعر العليا، والروح الظامئة للجمال وبرد اليقين،و ذلك من خلال (المساورة) التي يعرفها الشاعر نفسه بما معناه:

((إنها تعني الحديث الداخلي.... ساورتني نفسي مثلا.. وعلى الرغم من أن الإنسان لا ينطقها، إلاّ أنها تبقى قائمة كلغة، بينه وبين نفسه. إنها لغة التأمل الداخلي.. يعني أن يحكي الإنسان ويسر لنفسه بمفردات دون أن ينطقها. الدندنة

أيضاً هي نوع من اللغة ليس المقصود منه إيصال شيء بقدر ما المقصود التعبير عن فرح معين.. عن حزن معين)).

لقد استحق الشاعر العربي الكبير مظفر النواب أن نطلق عليه، مدمن التشرد والنفي، وشاعر القضايا الكبرى في تاريخ الأمة العربية، والمؤرخ الأمين لبطولات رائعة قام بتنفيذها كوكبة من المناضلين العرب، لكن التاريخ الرسمي أهملهم ولم يشر إلى بطولاتهم الفردية، التي عبرت عن روح الأمة المكافحة وردود أفعالها العفوية التي تدل على الأصالة وعظمة الانتماء.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المقاطع الشعرية عند مظفر النواب، أضحت تضاهي نصوص كبار المتصوفة أمثال الحلاّج، وابن عربي، والسهروردي:

دلتني الأشعار عليك..

فكيف أدلّ عليك بجمرة أشعاري

جعلتني الدمعات كمنديل العرس طريا

لا أجرح خداً

خذني وامسح فانوسك في الليل

نشع بكل الأسرار..

أو كقوله:

انقذ مطلقك الكامن في الإنسان

فإن مُدى المتبقين من العصر الحجري

تطاردني

انقذني من وطني

إذْ ذاك التف على جسدي الواهن روح المطلق

يتمتع شعر النواب بميزات أسلوبية يحسن التحدث عنها، لاكتشاف الملامح الجمالية والفنية في هذا الشعر، ولتلمس مواضع الضعف إن وجدت، وفي كلا الحالتين تتبدى القيمة الحقيقية لهذا الشعر..ولعلَّ من أهم وأبرز هذه الميزات الأسلوبية:

أ ـ المباشرة وانخفاض درجة المجاز في المقاطع المكرسة للمواجهة السياسية. يواكب ذلك صياغة لغوية مبسطة تقع في مطب العادية والركاكة أحيانا. بينما ترتفع درجة المجاز وتحلق الصور وتتألق اللغة في المقاطع الوجدانية المكرَّسة للمرأة أو للخمر أو للنغمات الصوفية. ويصل الأسلوب إلى توازنه الأجمل لدى الجمع بين الحالتين السابقتين في المقاطع التي يندغم فيها السياسي المباشر بالوجداني الفني بالصور واللغة التعبيرية. وهذه أمثلة على الحالات الثلاث المذكورة:

مثال أول من الحركة الأولى من الوتريات:

((وطني علّمني، علمني

أن حروف التاريخ مزورةٌ

حين تكون بدون دماء

وطني علّمني أن التاريخ البشري

بدون الحب عويل ونكاح في الصحراء)).

مثال ثان: من الحركة الأولى من الوتريات:

((هل تاب النورس من ثقل جناحيه المكسورين؟

وهل تاب الطبيب الفاغم في رفع امرأة خاطئة؟

فأتوب

هل تاب الخالق من خمر الخلق

ومسح كفيه الخالقتين لكل الأوزار الحلوة في الأرض

فتلك ذنوب

تعال لبستان السرّ

أريك الرب على أصغر برعم ورد

يتضوعّ من قدميه الطيب

قدماه ملوثتان بشوق ركوب الخيل

وتاء التأنيث على خفيه تذوبُ

ما دام هنالك ليل ذئب

فالخمرة مأواي

وهذا الجسد الشبقي غريب)).

مثال من قصيدة (حسين مزنر):

((يا من رأى الله شاحنة ليست تلوي

ويملي انفلات إرادته واكتراثه

كيف تكتشف العدسات الدقيقة ركن الشهادة

في حاملات الوراثة!؟

كيف تفهم تقنية العالم المتحضر،

أعصابنا تتخلل هذا التراب

تـتـنفس بنتٌ

فينبت حوض من الياسمين

ويركض طفل

فيشهق بين أصابعه النرجس الغرّ مثل الرنين

ومن عرق القلب

تزقو الشقائق حمراء

عابقة بالشجن

كيف يكتشفون ((الحسين)) من الدهر يأتي بشاحنة

ويزور سفارتهم بالقنابل

بعد قليل يزور العواصم

بعد قليل يزور العواصم..

ب ـــ حضور الموروث الثقافي العربي الإسلامي في شعر النواب ويأخذ هذا الحضور أشكالاً مختلفة منها.

١ ـ حضور أسماء بعض الشخصيات التاريخية التي كان لها دور حساس على صعيد الفعل السياسي في مجريات الأحداث في التاريخ العربي الإسلامي. يواكب ذلك حضور أسماء بعض الأماكن التي كانت مسرحاً للأحداث وحضور أسماء بعض المعارك التي دارت رحاها في خضم الصراع السياسي على السلطة. يضاف إلى ذلك الإشارة إلى بعض الأخبار ذات الدلالة الحادة التي برزت في أثناء الأحداث.

فمن الأسماء التاريخية يبرز:

-علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

- وأبو ذر الغفاري.

- والحسين أبو الشهداء.

- وأبو سفيان.

- ومعاوية.

- ويزيد.

- وعمرو بن العاص.

- وعثمان بن عفان، رضي اللله عنه.

- وحسين الأهوازي، وغيرهم.

- ومن أسماء الأماكن التي كانت مسرحا للأحداث الجسام: كربلاء، والبقعة، والربذة، والأهواز، وبغداد، والبصرة، وغيرها..

- ومن أسماء الوقائع التاريخية. وقعة الجمل، ووقعة صفين و كربلاء، وثورة الزنج، وغيرها...

من الإشارات إلى الأخبار:

- حمل رأس الحسين إلى يزيد.

- الشورى وتولية عثمان الخلافة الإسلامية.

- رفع المصاحف على رؤوس الرماح في صفين.

- عمرو بن العاص، وكشف العورة، وغيرها.

وهذا شاهد من الحركة الأولى من وتريات ليلية تجتمع فيه كل هذه العناصر:

هذا رأس الثورة.

يحمل في طبق في قصر (يزيد)
وهذه (البقعة) أكثر من يوم سباياك
فيالله و للحكّام ورأس الثورة

ويقول في قصيدة ((كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر)):

كفرت بمن يحملون القواميس في حرب (صفين هذي)

فأول كل العلوم التراب

فمن لا تراب له لا سماء له

فلك وحساب

٢ ـ حضور النص القرآني في شعر النواب

ونلاحظه إما محصوراً بين قوسين، أو مرسلاً في نسيج الجملة الشعرية أو ملوحاً به من خلال مفردة ما أو تركيب لغوي معين.

أمثلة:

مثال أول: النص محصور بين قوسين: يقول في قصيدة ((ملازم عن المسك وشتائم جميلة)):

((أمة تترافع عنك

فأي قضاء يواجهها

من يدين ((أعدوا لهم ما استطعتم))

ومن ثكلته الثواكل

يلقي الجماهير في السجن قاطبة

من يقيد رسغي غد بالحديد

وقد أزف الانتقام؟!))

حيث تحضر الآية (٦٠) من سورة الأنفال: ((**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون**))

مثال ثان: النص مرسل في نسيج الجملة الشعرية: يقول في قصيدة ((أيها القبطان)):

((أينه وعد الذين استضعفوا في الأرض

والركض على المسلخ يومياً؟!

وأنا أصرخ يا رب التفت للناس

ما هذه القيادات المنافيح فراغا

تشتكي من سوء هضم

داخل المخ

وتجتر نياما؟!))

حيث تحضر الآية (٥) من سورة القصص: ((**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين**))

مثال ثالث: يجمع بين النص القرآني المرسل في الجملة الشعرية والنص المحصور بين قوسين:

يقول في قصيدة ((أيها القبطان)):

((ببيوت أذن الله بأن يذكر فيها

وكثيراً هيّمتني

((ألم نشرح)) ((والضحى))

((يا أخت هارون ولا أمك قد كانت بغيا))

((زكريا))

((وسليمان بن خاطر)) كان صديقاً نبياً وإماما))

حيث تحضر من آيات مختلفى من سورة ((الشرح)) و((الضحى)) و((مريم)).

٣ ـ التلويح من خلال الجملة الشعرية بنص تراثي أو بحقيقة تاريخية أو بخبر:

((مازلنا نتحجج بالبرد وحر الصيف))

فإنه يلوّح بما ورد في خطبة الإمام علي عليه السلام في الحث على الجهاد وذم القاعدين، حيث يقول: ((فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الصيف قلتم هذه حَمَّارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحرَّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم هذه صبارة القرّ أمهلنا ينسلخ عنا البرد كل هذا فراراً من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال))[1]

وحين يقول في الوتريات أيضاً:

((قال إلى أين الهجرة؟

فارتبك الخزرج والأوس بقلبي

ومسحت التنقيط من الحدس

لئلا يقرأني الدرب

وسيطر سلطان نعاس الصبح))

فارتباك الخزرج والأوس بقلب الشاعر يعني اضطراب جوانح الشاعر ملوحاً بما كان عليه الأوس والخزرج في (المدينة) من صراع وتباغض إلى أن جاء الإسلام. فالجملة تحمل طاقة تلويحية تخرج المعنى من محله الفردي الذاتي في قلب الشاعر إلى أبعاد أوسع في التاريخ ((ومسحت التنقيط من الحدس)) تلوح بالتنقيط الأول للقرآن الكريم.

وحين يقول في قصيدة ((ملازم عن المسك وشتائم جميلة)):

---

(١) نهج البلاغة، وعليه شرح الشيخ محمد عبده، الطبعة الرحمانية بمصر. ص ٧٧.

((ثملٌ بالشوارع

أحزانه لا تـنام ولا تستفيق

مسدسه ثقة بالحياة

إذا حاصرته الكآبة كان على نفسه يفرغ النار

ثم يشاهد في نيل واسط طـيراً

توضأ باللازورد الصباحي

نور الشفاعة والسكر في ناظريه

وقلب كثير الخزاريف جمٌ طروبٌ.))

يعلق الشاعر في هامش القصيدة على هذا المقطع مشيراً إلى ما يلوّح به: ((خرج أحد المتصوفة صباحاً إلى نيل واسط ((نهر قديم قرب مدينة واسط العراقية)) فرأى طائراً أبيض في وسط النهر فصاح مبهوراً بهذا الجمال الصباحي:

((سبحان الله، يا لغفلة العباد)).

جـ ـ نظام التقفية:

في ما بين أيدينا من شعر مظفر النواب نلاحظ نمطين من التقفية:

النمط الأول: وفيه يلتزم الشاعر بالقافية الموحدة كما في قصيدته ((باللون الرمادي)) المكتوبة على نظام البيت التقليدي من وزن بحر البسيط حيث يلتزم قافية واحدةً.، والقصيدة مطلعها:

دمشق عدت بلا حزني ولا فرحي   يقودني شبح مضنى إلى شبح

وكما في قصائده المكتوبة على نظام التفعيلة الواحدة التي لا يخرج فيها على البيت التقليدي إلا من حيث عدد التفعيلات. ففي قصيدة ((وما هم ولكنه العشق)) يلتزم قافية القاف: ومطلع القصيدة:

هام

لم يدر

متى أطفأه الشوق

وأين احترقا))

وفي قصيدة ((**اعترافتان في الليل والإقدام على الثالثة**)) يلتزم قافية الفاء والمطلع:

((في الهجر جفاني اللؤلؤ

في الوصل رعاني الصدفُ))

النمط الثاني من التقفية: وهو في القصائد التي ينداح فيها المقطع الشعري على عدد كبير من الأسطر إذ نلاحظ أن الشاعر لا يلتزم القافية الواحدة سواءً أفي خواتم المقاطع أم في المقطع الواحد. كما في قصيدة ((وتريات ليلية)) و((قراءة في دفتر المطر)) و((كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر)).. بل إن الإحساس بالتقفية يكاد يغيب تماماً في بعض المقاطع كما في المقطع الأول من قصيدة ((كيف نبني السفينة في غياب المصابيح والقمر)):

د ـ **أسلوب التكرار:** ظاهرة تكرار بعض المفردات أو الجمل الشعرية واضحة في شعر النواب. وقد وظف هذا التكرار كتقنية أسلوبية في خدمة أداء المعنى. فهو يستخدم التكرار لأغراض مختلفة أهمها:

١- التكرار لتعميق حضور المفردة في النص أو لتوكيد المعنى الذي تحمله الجملة الشعرية. ففي مطلع قصيدة ((**قراءة في دفتر المطر**)) يقول النواب:

((في الليل

يضيع النورس في الليل

القارب في الليل

وعيون حذائي تشم خطى امرأة في الليل

امرأة ليست أكثر من زورق

لعبور الليل

يا امرأة الليل!

أنا رجل حاربت بجيش مهزوم

ما كنت أحب الليل بدون نجوم))

نلاحظ كثافة حضور مفردة (الليل) وتواترها.. حيث تتكرر سبع مرات في هذا المطلع الذي عدد مفرداته ثلاثون مفردة. وهذا التكرار يسهم عنا في تشكيل مناخ القصيدة. فالشاعر يتسكع في الليل بحثاً عن امرأة ولكن الليل في أعماق ليل آخر حارب فيه الرجل بجيش مهزوم.. إنه الليل الحزيراني وما تلاه.

فإذا ما تابعنا الشاعر في هذا المطلع عرفنا أكثر أي ليل هو الذي كان يخيم عليه حيث يقول في قصيدته التي نشرها عام /١٩٦٩/:

((وأخيراً صافح قادتنا الأعداء

ونحن نحارب

ورأيناهم ناموا في الجيش الآخر

والجيش يحارب

والآن سأبحث عن مبغى أستأجر زورق

فالليل مع الجيش المهزوم طويل))

أما في ((**وتريات ليلية**)) فإن الشاعر يكرر بعض الجمل لاشباع المعنى وتعميقه في نفس المتلقي كما في قوله:

((قتلتـنا الرده

قتلتـنا الرده

قتلتـنا الرده

قتلتـنا أن الواحد منا يحمل في الداخل ضده))

يأخذ تكرار هذه الجملة الشعرية في القصيدة بُعداً نحيبياً، إن صح التعبير، فالشاعر لا يقول هذه الجملة وإنما يجهش بها متحسساً فداحة فعلها في المصير العربي ومحاولاً غرز هذا البعد في نفس المتلقي.. وظيفة أخرى يقوم بها هذا التكرار حين تتكشف القصيدة عن معنى أوسع للردة.. معنى أوسع مما عرفناه في كتب التاريخ حتى ليخيل إلينا أن في الأمر ردات لا ردة واحدة. وهكذا يكون التكرار مثيراً لتداعي معنى كهذا.

٢- التكرار يساهم في رسم الصورة ويعبر عن الحالة النفسية:

فحين يصل الشاعر إلى الأهواز فاراً مطروداً مشرداً، ويرى من حوله الحياة تتفتح بصباحها ونسائها ونخيلها حول غربته التي تحمل نقاءه وعطشه وشقاءه يتوجه بخطابه إلى الله:

((هذا طينك يا للّه! يموت به العمر

ويشتعل الكبريت

جنونا

هذا طينك.. طينك طينك.. تتقاذفه الطرقات

بليل المنفى والأمطار))

فالشاعر هنا في حالة عري من كل شيء إلا من طينته التي سواها خزاف الوجود وها هو مشرد مشتت مبعثر. وهذا التكرار لكلمة طينك هنا إنما يرسم صورة لهذا الرجل الذي تتقاذفه الأرض ويصف حالته النفسية في قلب هذه البعثرة.

٣- التكرار للتشُّبع من النشوة الوجدانية المبثوثة بالكلمات في سياق ما وخاصة إذا كان هذا التكرار يغني موسيقا النص.. كما في قوله:

((أحمل من وسخ الدنيا

أن النهر يظلُّ لمجراه أمينا

أن النهر يظلُّ .. يظلُّ .. يظلُّ أمينا

أن النهر يظل...))

وهنا نلاحظ تجزيء الجملة الشعرية وتكرار أجزائها.. فكما أن الجملة كاملة تعطي معنى ما فإن أجزاءها يعطي كل منها على حدة معنى خاصاً ويثير ذوقاً خاصاً والتكرار فيها يوزع هذه المعاني والأذواق ويدير شمولها في أثناء النص.

٤- التكرار بعفوية تمهيداً لتوليد كلمة جامعة في تتمة العبارة:

مثال من ((**أيها القبطان**)):

((أنا سكران بمن تخلقهم

من نطفة طاهرة

مثل مياه الصبح

في الخد قناديل من المسك

وفي العين شرود الظبي في الصحرا

أنا

أنا سكران بمن

يا رب يا تدري بمن!

لا مني الحب على الحب فأغويت الملاما))

٥- التكرار الغنائي: كما في قصيدة ((عروس السفائن))، منها:

((أيا لازوردُ!

أيا لازورد! أيا لازوردُ!!

إذا هزج البحر فالكون زاء منونة

فوقها شدة

فوقها شدة

فوقها ثم مدّ

وللشد من بعد ذلك شدٌّ

وللشد شدٌّ

وإني على الحبل من مركبي في الظلام أشد))

٦- التكرار لإعادة تركيب المقطع أو ترتيبه: إذ يلاحظ أن مظفر النواب قد يكرر في أثناء القصيدة مقطعاً فيعيده محوراً قليلاً عما ورد عليه في المرة الأولى. وأشعر تجاه هذا النوع من التكرار بالتأرجح الذي يستوعب ما سبق ويشحن لانطلاقة جديدة.

هـ- السخرية والتهكم: برع النواب في رسم صور شعرية كاريكاتيرية، تعتمدُ إقامة علاقات معنوية وفنية بين عناصر متنافرة، بشرط أن ينتج عن هذه العلاقات صورٌ ساخرةٌ مضحكة. وتجلّت أمثلة هذه الحالة في قصائده التي انضوت تحت (شعر النضال السياسي). وعند البحث في هذه الحالة من السخرية لا يجد المرء صعوبة في ردّها إلى أسبابها التي نذكر منها:

إن الشاعر ذو قدرة على اتخاذ موقف السّاخر اللاذع من موضوع هجائه، وهو لا يريدُ أن يفرط بهذه القدرة لأنها عمادٌ من أعمدة شعره. وبالتالي من أعمدة رؤيته بشكل عام، وإذا كانت هذه السخرية مرتبطةً بشعره السياسي فذلك لأن تناقض(السياسي) مع الشاعر يصلُ حد الانفجار. فلا انسجام بينهما أبداً لِما يمثّله الأول من قامعٍ للحلم، و ما يمثله الثاني من حالم كبير. وعلاقة التضاد بين الاثنين تستدعي ردة فعل ما من الشاعر، وردّة الفعل هذه يجب أن تكون على مستوى صدام الشاعر مع السياسي، أفلا تلبّي السخرية من السياسي هذا الجانب؟ نعم، لأنها تصبح إمعاناً في إظهار صورة السياسي وتجلياته بمظهر التهكم.

المعاناة الكبيرة التي رافقت حياة الشاعر وشعره، في علاقته مع وطنه ومنفاه، سببٌ ثان للسخرية، من حيث أن المأساة تنقلب في ذروتها إلى نقيضها، فتصبح السخرية المرة وجهاً ثانياً للمأساة. ذلكم يشبه رقص الطير المذبوح من الألم.

السخرية أداةٌ من أدوات كشف نقائض العالم، وقناة من قنوات الوعي للامعقولية العالم. فكأنه لا شيء يتبقى من كل هذا الكون الذي يطارد الشاعر ويستلبه، إلاّ أن يكون موضوعاً للسخرية السودائية.

أمثلة على السخرية:

مُبَايعٌ وبي خصامْ

كيف اليسارُ كاليمين؟

هكذا الضياء كالظَلامْ

بعض اليسار سيدي به فُصَامْ

نُوضَعُ في العصَّارة كي يخرج منّا النفطُ...

سُدّي المذياع الكلبَ لقد طارت سكرتـنا

قَدمي في الأخبار وقمتِهم

مِعزى بلحىً مهما طيَّبها المسكُ؛

بها رائحة البعرِ

لا أزال أراقبُ هذي الشّبابيكَ

ليس لشيء .. أريدُ أبولُ

ألا تستحي ابنة الكلب من نقطتين ومن شارحَةْ؟

مَسَكُونيَ ثانيةً بملابسي الداخليةِ فوق الحكومةِ

لم يرحموا رغبتي الجارحهْ

المثال الأخير على السخرية قصيدة عنوانها ((صورة زيتية....)) حيث اعتمد الشاعر على تقسيم قصيدته إلى مقاطع ثنائية متناقضة. المقطع الأول لوحة هزليةٌ، مغرقةٌ في سخريتها، والمقطع الثاني يعود إلى وجدان الجسد أو وجدان النفس.

وقد أظهر الشاعر في هذه القصيدة تفوقاً في الكتابة بأسلوبين متناقضين في اللحظة نفسها.لكأنه (الفارابي) الموسيقي الذي عزف فترك القوم نياماً، ثم عزف ثانية فأيقظهم. ومن مقاطع هذه القصيدة نقرأ :

طورا لحية الشيح مكنسة

شغلوها على الكهرباءْ

....

....

....

ويقول في المقطع الذي يليه:

وأرجوحةٌ بين نخل العراقِ القمرْ

أشتهي صِغَري لأنام بها

في فمي نجمةٌ من حليبٍ

أبوحُ يدي عندهنَّ

وأذرفُ ريقي بإحدى السرُّرْ

وأرمي اشتهائي شباكاً مقطعةً لا تصيدُ

فإني متهمٌ بالنّهَرْ

أرجحتـني على الكون أمّي كحلم النوارس

فألتبس الله عندي بكل البَشرْ

- **ثم يعود إلى السخرية في مقطع لاحق مباشرة:**

* سادتي سيداتي هنا طرطَرةْ

موجز العاشرةْ:

أمير البلاد المفدّى بحكْم الطوارئ

يلفّ العقال كمروحة الطائرة...

ملاحظة أخيرة على موضع السخرية عند النواب: يمكن أن يزعم الناقد القارئ أن النواب يتمتع بروح مرحة في هجائياته الساخرة. وقدرة على صياغة ما نسميه

(النكتة الشعرية) ويمكن أن نقول هنا أنه يعكس بهذه النكتة ثقافة ما يجب ألا يُستهان بها، ثقافة تتشكل في أوساط جمهور الناس المسحوقين الذين يجدون في النكتة سلاحاً يحاربون أداة سحقهم به. وهكذا يفعل الشاعر الذي يقول في هذا المجال:

(... وخبّرْها بأنّ النّكتَ الآن مرايا)

إنه إذن واعٍ لما يفعله ويدرك أن نكتة يصوغها بشعره، ستشكل مرآةً تعكس حياةً خربةً صدئةً تستدعي الضحك عليها.

ز- القصة عبر القصيدة: يعتمد النوّاب في عديدٍ من قصائده على حكاية يرويها، فيشكل من أحداثها وأزماتها وأشخاصها وتناقضاتها بناءً شعرياً له طابع ملحمّي. حتى أنه يمكن أن ننتزع من قصائده تلك قصصاً نرويها بمعزلٍ عن القصائد، وقد تكون الذاكرة الشعرية الممتلئة بحياة الطفولة وعذابها سبباً من أسباب هذه السمة حيث يقف الشاعر أمام حياته طفلاً فينقل لنا حكايات من طفولته. كالقصيدة التي يروي فيها كيف كانوا صغاراً يلعبون بالقصب على أنه بنادق تطلق النار. وكان محرماً أن يرمي أحد بندقيتهُ من يده مهما كان الظرف، وإلا فسَيطرد من ساحة اللعب، وقد حدث أن غفل أحد الصغار ورمى بندقيته، فترتّب على ذلك أن طُرد من الساحة، بل ولشدّة خجله لم ينبت له شاربان فيما بعد، وحين يمر الشاعر كبيراً- وقد خط الشيب قلبهُ – على ساحة الصغار نفسها، يرى فيها أولاداً يلعبون كما كان يلعب مع رفاقه. فيرى أن أحدهم قُذف بالنار، فيحتمي ببندقيته القصب ولا يسمح لها أن تفلت من يديه. يسأله الشاعر لماذا فعلت هكذا؟ فيشير الصغير إلى شاربيه. إشارةً إلى أنه لا يريد أن يحصل كما حصل لذلك اللاعب الذي ترك البندقية.

ذلك سبب من أسباب اعتماد الشاعر على الحكاية في داخل القصيدة.

وثمة سبب ثان نزعمهُ، وهو أن القصّة ببنائها الخاص وذروتها وأزمتها تُعطي بُعداً درامياً للقصيدة يمنحها حيويةً وغنى ونشاطاً دائماً. حتّى لتبدو بعض من قصائده (ملاحم) كما في (جسر المباهج القديمة) وقصة بحّار البحّارين ومغامرات سفره

وصراعه مع العالم والبحر والبحارة المتآمرين. وفي هذه القصيدة تشتبك عناصر كثيرة فيما بينها لتؤلف كلاً هو (دراما) بحّار البحّارين.

(سوف أحدثكم في الفصل الثالث عن أحكام الهمزة

في الفصل الرابع عن حكّام الردة...)

وما قصيدة (وتريات...) إلا قصة تسلّله إلى الأهواز والحياة التي تعرّض لها هناك بين الموت والموت. قصة يجتمع فيها العشق مع الطين مع السياسة مع التراث مع السجن مع الأمة مع البدو مع...

ح- في حالات الوجد الارتقاء بالحواس، تختلط لدى الشاعر الصوفي الأفعال بأزمنتها المختلفة ، والمسميات والوقائع وتتداخل الألوان ووظائف الحواس. فترى اليد ، وتفكر الكؤوس، وتقذف الجنة في النار. كل ذلك يجتمع في لوحة لا هي منسجمة ولا هي متناقضة ، إنها تلك النقطة التي تزول فيها الفروق بين المعقول واللامعقول، بين الروح والجسد ، والكفر والإيمان، تلك لحظة سريالية تتفجّر أشباحاً وعوالم من غموض وسحرٍ تكتنف قصائد النواب جميعها.

*** بقينا جميعاً أسارى المرايا**

وظلّ مدى العمرِ متّهماً

بافتضاض الكؤوس

وشرب الصبايا

***إن عهرَ الطّهر في السرّة حالةْ...**

***أنا أرى باللمسْ**

*** وصارت كؤوس الكحول تفكّر عني...**

ليست هذه ألعاباً في اللغة، لا شك أننا نلمح للوهلة الأولى تفكيكاً للعلاقات بين الأشياء- وهل الشعر غير هذا؟- لكن هذا التفكيك ناجمٌ عن تفكير صوفي يرى نقائض العالم كلها كلاً واحداً. فهذا الصوفي الذي يشبه الأسفنجة (تمتص الحانات ولا تسكر) لن يجد فيما بعد هذا الكون أجزاء متفرقةً. بل سوف يراه شمولياً كأنه نبضةٌ من نبضات قلبه.

ط- استناد صور الشاعر بشكل عام إلى السريالية. وقد ذكرنا في الفقرة السابقة شيئاً من هذا، وهنا نذكر أن النفس والحلم والذاكرة والخيال، التي هي عناصر أساسية في صياغة الموقف السريالي، متوفرة لدى النواب بغزارة واضحة، إنه كمن يكتب في لحظات الحلم، ولا يتوانى عن أن يشطح في مجازاته وخيالاته إلى مرحلة مغالية. صانعاً بذلك أفقاً خصباً من الأحلام واللاشعورية والضبابية التي تشف عن جوهر لا تشف عنه شمس واضحة. من هنا ذلك الغموض الذي يبرز في وجدانيات النواب، وملاحمه الطويلة، وخمرياته:

***آلمني الجرحُ**

***مددتُ بساقي**

خرجت قدمي كالرعب من الحلم

وكان لإبهامي عينٌ عمياء.

*** وعيونُ حذائي تشتمّ خطى امرأة في الليل.**

امرأة ليست أكثر من زورق

لعبور الليل.

*** منع الماء وغطّى البستان بسقفٍ**

فالماء يجيء من الله

إذا منع النهرَ السلطان

أعطى الغربان مديّاً وبنادق

واستنجد أيضاً .. بقيادات البقّ الوطنيّ

وأرضِ الروم.

تلك كانت بعض النظرات في الأسلوب النوابي استجلينا من خلالها الكثير من جماليات شعره.. ولا تدعي هذه النظرات أنها قد أحاطت بكل ما في الأسلوب النوابي من ملامح فنية وسمات جمالية إذ أن الدراسة المستفيضة يمكن أن تضع يدها على ملامح أخرى.. فشعر النواب غني بالميزات الأسلوبية التي تمنحه خصوصية عالية وتفرده كصوت هو نسيج وحده على الساحة الشعرية العربية.

مظفر النـواب في مرآة الحوار

هذا الحوار الصحفي الذي أجرته الأديبة المرموقة حميدة نعنع، يرسم وبصورة عفوية ملامح الشاعر الكبير، ويسلط حزمة ضوء على شخصيته التي تحظى بتقدير كبير من أبناء الشعب العربي، ومن أناس يتذوقون الشعر العظيم، ويشكلون شرائح اجتماعية مختلفة.

لقد جاء هذا الرسم من خلال مرآة الحوار، أي أن الشاعر يرسم صورته بنفسه وبريشته الساحرة المبدعة، دون (رتوش) أو (زيف) أو (تهويمات سريالية)، ودون أن يستعرض عضلاته الأدبية، من أجل خطف الأضواء، وتذوق نعمة أو نقمة(النجومية)، وهي أجوبة ذكية تحمل وجعاً قومياً، وجراح الشهداء الكبار في التاريخ العربي، و هماً إنسانياً يعني الإنسان العربي أينما كان....

وكما ذكرت في كتابي الذي حمل اسم: (مظفر النواب بين الجرح العراقي ونهر الأسئلة)، فإن آفاق التجربة الشعرية (النوابية) هي تجربة نادرة ومدهشة، أضافت إلى ديوان الشعر العربي الخالد، صفحة جديدة، أقصد معلقة (وتريات ليلية) التي هزت الوجدان العربي من المحيط إلى الخليج، ومن الماء إلى الماء، وأضحت بعض مقاطعها الشعرية، تضاهي نصوص كبار المتصوفة العظام، أمثال: الحلاج، وابن العربي، والسهروردي، وغيرهم....

وفيما يلي النص الكامل للحوار الذي أجرته الأديبة حميدة نعنع مع الشاعر مظفر النواب، الذي نشر لأول مرة في مجلة (الكفاح العربي) بتاريخ ١٩٨٤/١/٢٣م:

الشاعر الجيد هو الذي يعيش في قلب التحدي الكبير

لعله أعمق الشعراء العرب المعاصرين إحساسا بالغربة والضياع، والنفي والتشرد والمطاردة. لا يعرف الاستقرار في مكان.. ينتقل من بلد إلى آخر ودمه على كفه.. ويظل مرتاباً من كل ما يدور حوله، حتى تتأكد له الصورة التي يجليها ببصيرته النافذة المتوترة...

❖ مظفر النوّاب... هذه المقابلة لن تكون كالمقابلات التقليدية بين صحافي وشاعر.. فأنا بعيدة الآن عن الصحافة.. سوف يكون حواراً بين اثنين، من الذين شردهم عصر النفط العربي في عواصم العالم. إنها رغبة في الخروج من الضلال والحيرة.. في التخلص من الخضوع للمصير المحتوم.. قل لي أين يقف الفنان العربي مما يحصل على الساحة العربية اليوم، ومن بوسعه أن يدرك اختيار الفنان؟

- قبل الإجابة عن النقطة المركزية في السؤال، والمتعلقة بأين يقف الفنان العربي مما يجري حوله اليوم، أودّ أن أقول إننا إذا كنا نحن الاثنين مشردين في هذا الوطن العربي الكبير، فهذا لا يعني أن المشردين في هذا الوطن أقلية.فمعظم مواطنينا العرب هم مشردون ويخضعون لشتى أنواع النفي والتغريب والقهر. و يوماً عن يوم تزداد رقعة التشرد هذه. فبعد مأساة الفلسطينيين، ها نحن نشهد تشريداً عربياً بالجملة من قطر إلى قطر. والفنان إزاء هذا الوضع، تزداد مشكلته عنتاً وصعوبة. لأن الأنظمة إذا كانت مستعدة للتسامح مع أي مواطن، عاد إليه ((وعيه))، فإنها لا ولن تتسامح مع الفنان الصميمي الذي يزل يناكدها في استمرار، ولأنه كذلك، أي لا يستطيع السكوت على الأوضاع الزرية وكل أشكال الإبادة التي تتم يومياً، فهو يعاني مضاعفاً وخصوصاً.. إنه مطارد في رزقه، وأمنه الشخصي وفي الكلمة التي يقولها، الخ...لذلك هناك غربات مضاعفة بالنسبة إلى الفنان الحقيقي.. وإذا كان التشرد هو إحدى الغربات، فهناك غربات أخرى.. غربة بينه وبين ذاته.. أحياناً لا يستطيع هذا الفنان المجاهرة بآرائه، مهما يكن ثورياً، بسبب أنه مشرد في كل

مكان، كما أن بوحه بأفكاره قد يعرضه للتصفية أحياناً. فالغربة عن الذات هي أشد أنواع الغربات وأقساها.

❖ هل تشعر بالغربة إلى هذه الدرجة؟

- نعم أحياناً أهرب من نفسي عبر الفن... الفن بما هو احتجاج على واقع معين. ورسم لواقع جديد نطمح إليه... كما يتم الهروب عبر الدخول بنوع من البلادة العامة التي تلجأ إليها الجماهير أحياناً، تماماً مثلما ترى الآن. والغريب أن بواقي الأنظمة يتساءل الآن عن عدم تحرك الجماهير في أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان.. أين هي هذه الجماهير المعنية بتاريخها؟ أين هو الشارع العربي؟ والحقيقة أن الشارع كان يقابل هؤلاء الحكّام بالبلادة التي يستحقون..كأن في ذلك يحاول أن يتجاهلهم وينكرهم ويرفض أي دعاوى للتحرير على أيديهم، لأنها دعاوى كاذبة أساساً.

❖ هل هذا يعني أن اللجوء من قبل الجماهير ليس نوعاً من حماية الذات؟

- لا أبداً.. إنما هو نوع من الاحتجاج الذي يظهر في ظروف معينة، وكأنه هو الشكل الممكن في هذه الظروف. وهذا النوع من الاحتجاج يدمر بشكل مخيف ومرعب عندما ينفجر..لماذا؟ لأنه صامت وأخرس.. حزين ومقموع.. إن احتجاجاً من هذا النوع. لا بدّ من أن نتائجه ستكون أوخم وأفظع على مسببيه.

❖اسمعني قليلاً: يا غريباً بابه درب الحمى، مفتوحة للريح والأشباح والأعشاب.. هذا الغريب هو أنت.. الغربة عن ماذا ولماذا والانتماء لمن؟ أهو انتماء للسر أم للشعر؟ ولمن ينتمي الشاعر؟

- الغربة عن كل الأشياء.. عن كل ما حولنا.. لا أعتقد أن ثمة شيئاً طبيعياً في سياق دورتنا العربية الكئيبة هذه.. هل الشاعر ينتمي إلى السر أم إلى الشعر؟؟ الشعر هو السر.. هو سر الأسرار.. وهذه مسألة يدركها عميقاً أولئك الذين هم في عمق العالم الفني.. عالم الشعر.. والفن.. والموسيقى..الخ..

❖ بقدر ما أنت مفهوم في شعرك السياسي، بقدر ما قصائدك غير السياسية تدخل عوالم، يعسر على الغرباء أن يفهموها. من يمكن أن يكون الحكم على الشاعر. هل هم محبو الشعر المؤهلون لإعطاء رأي قاطع، أم آخرون، ومن هم؟

- الشعر فن مثل بقية الفنون.. له قواعده وأصوله وأبعاده الخاصة.. وعلى العموم ليس هناك شيء يمكن أن يفهم بشكل عام.. هناك فهم عام بحد أدنى، أو بكلمات أخرى هناك قاسم مشترك، معين بين الفنان والناس عموماً.

على أن جمهور الشعر.. وهو في الإجماع جمهور محدد وخاص يعي هذه القضية- لأنه يتابع قضايا الكتابة والفن الخ- ويستوعب جدليتها، بينما الإنسان العادي، أو رجل الشارع ، لا يعي هذه الجدلية الفنية، وواجبنا تجاهه كشعراء أن نمد كل الجسور التي تساعده على ترتيب فهمه لما نقول.. لأننا نحب أيضاً أن نرى أنفسنا فيه.

❖ هل العملية عملية خروج إلى رجل الشارع، أم هي استقطاب لرجل الشارع، كي يدخل عوالم الشعر والشعراء؟

القضية هنا، ليست قضية خروج، أو مجاراة لمفاهيم محددة. إنما هي قضية إحساس، بدور الشعر ووظيفته في الأساس. فالشاعر في رأيي معني بقضية المسيرة الحضارية لشعبه.. إنه هو الذي يرسم طموح هذه المسيرة وحلمها.. وأفقها بشكل عام.. والشاعر الجيد هو الذي يعيش في قلب التحدي الكبير، ويرفع في استمرار، لافتة الإنسان.. الإنسان المعذب المقهور.. فالحساسية.. حساسية الفنان الذي يعيش عصره، ليست قضية مطلقة وغيبية.. إنما لها علاقة مباشرة وأساسية مع الناس، حتى قبل أن تندرج لتقيم علاقاتها مع أشكال التكوين الأخرى.

❖ مظفر.. تاريخياً الشعر العربي، منذ الجاهلية، وحتى الآن، هو الذي يأتي إلينا،، عملياً، نحن نجلس على مقاعدنا، ونستمع إلى قصيدة شعر. نطرب ونصفق. ولكن حتى الآن، لم يحصل بالنسبة إلى الشعراء- ما عدا قلة- أن أجبروا الإنسان عينه أن يخرج من ذاته، ويذهب إلى الشعر، بمعنى أنه يفكر بالشعر.. أن يحاول أن يبدع من خلال تلقيه القصيدة، قصيدته الخاصة به.. ما تعليقك؟

- تاريخ الشعر العربي يؤكد، أن ليس الشاعر باستمرار، هو الذي كان يذهب إلى الجماهير. فثمة أعداد غفيرة كانت تأتي لتسمع شعر الشعراء وتتذوقه وتتفعل به. وظاهرة (سوق عكاظ) أسطع دليل على ذلك. على أنه وفي ظروف معينة، انحصر الشعر في قصور وبلاطات السلاطين والخلفاء.. ومع ذلك ظلت له حرارته..لأن الشعر

بالنسبة إلى العرب لم يكن شيئاً عادياً.. كان إلى حد كبير، (نظام معرفتهم) وعلاقاتهم ولغتهم اليومية.

وفي عصرنا الراهن، وبسبب من مشاغل الناس، والموت اليومي، الذي يتعرضون له، حصل بعض من فك ارتباطه بالشعر.. فالإنسان إزاء تقونن حياته، يلجأ إلى نوع من البلادة، كي يحافظ على أعصابه وتماسكه.. ويبدو أن (ظاهرة البلادة) هذه بدأت تستشري شيئاً فشيئاً.

في المقابل ما زال بعض الشعراء العرب المحدثين يشكل نقطة جذب بالنسبة إلى الناس. فتذهب إليه، وتنصت إلى شعره. وأعني بهذا البعض أولئك الذين يخاطبون جماهيرهم، بصدق وجرأة واضحة وابتعاد عن أشكال المداجاة والتزلف.. أو ليست ظاهرة ((الشيخ إمام)) مثلاً، ملفتة في هذا المجال؟

❖ أقصد بالمعنى الفني، فباستمرار كان الشعر العربي شعراً سهلاً.. عندما يستمع إليه إنساننا، يطرب، ويقف عند حدود الطرب، ولا يحاول أن يبدع من خلال تلقيه القصيدة.. أي لا يحاول أن يخرج من ذاته إلى الشعر، ويبذل جهداً من أجل الفهم.. لأشرح قليلاً بعد.. عندما أسمع شعراً لنزار قباني أحس تماماً بالإحساس عينه لدى سماعي قطعة موسيقية شرقية. الطرفان يشكلان لي نوعاً من المتعة الصغيرة السريعة.. وتختفي هذه المتعة بمجرد الانتهاء من سماع القصيدة أو القطعة الموسيقة.. قصيدة من هذا النوع لا تساعدني على الاختراق فيها وتفجير قصيدتي الخاصة بي.

- هذه الظاهرة لها جانبان: الأول أن هناك عدداً كبيراً من الشعراء العرب المعاصرين ، لا يزال أسيراً لذاتيته، أي أنه يعتقد أن الكرة الأرضية أنما تدور من أجله، وأن ما يجري في العالم من أحداث، هو وحده المقصود بها..والأسير لا يمكن أن يطلق الأسير الأخر(انساننا العربي) ولا يمكن أن يفجر فيه طاقات الإحساس والمشاعر. والجانب الثاني يتعلق بإشكالية المثقفين. فالمثقفون العرب القدامى عندما كانوا يسمعون قصيدة لأبي العلاء أو المتنبي مثلاً، كانوا يتابعونها متابعة تفصيلية وذكية ومفندة.. ولا تهم صعوبة القصيدة، واستغلاقها أحياناً.. كان المثقف القديم

يخـرج مـن ذاتـه إلى ذاتيـة الآخـرين يحللـها بـدهاء، ويـستخرج مـا يـستخرجه مـن عـبر للآخرين.

أمـا بالنـسبة إلى مثقفينـا العـرب المعاصـرين.. فمعظمهـم لم يـستطع أن يتبـوأ المكانـة الـتي كـان عليهـا الأسـلاف في التـأثير والفاعليـة. فـأغلبهم (متطـاولو معرفـة) ومكــابرون. وهــم أيــضاً الــشعراء والفنــانين أســرى ذاتيــات (يائــسة) و (مــضجرة) و(مدعية).. وذات من هذا النوع أنى لها أن تبدع وتـؤثر في الواقـع (الأسـير) الـذي كـان يعانيـه الجميـع.. وهـذا النـوع مـن الذاتيـة ينـسحب علـى عـالم الـسياسة أيـضاً. فعالمنـا السياسـي مع الأسـف تحركـه ذاتيـات.. فزيـد الفلانـي، هـو الحـاكم بـأمره، والأمـور جميعاً تسوى بحسب رغبتـه الشخـصية. فحـاكم مثـل الـسادات مـثلاً هـو وحـده اتخـذ قـراراً بزيـارة (إسـرائيل).. وصـار مـصير مـصر كلـها وحتـى الأمـة العربيـة، مرهونـاً بقراره. تصوري قرار فرد في لحظة معينة، يساوي قرار أمة تعد بالملايين.. مهزلة هذه.. أليس كذلك؟.

❖ **أود أن أسـألك عـن الإلقـاء.. كـثير مـن الـسامعين أو المـشاهدين يتـصور أنـك (تمسرح) إلقائك القصيدة.. هل هذا صحيح؟**

- في لحظة الإلقاء، أشعر بفرديتي، أو على الأصح أكون مـع نفسـي أكثـر.. ولا أعـود أحـس أو أرى أحـداً أمـامي..أشـعر بخـوف كـبير قبـل الإلقـاء إنـه خـوف داخلـي تحتمـه رهبـة الـشعر والنـاس علـى مـا يبـدو. لكـن في اللحظـة الـتي أبـدأ فيهـا قـراءة الكلمـات الأولى مـن القـصيدة يتبـدد هـذا الخـوف وأشـعر كـأنني في غيـاب تـام عـن كـل مـا حـولي.. ويتحـول مـشهد النـاس أمـامي إلى كتلـة مجهولـة، وعظيمـة، في غموضـها.. وهـذه الكتلـة تكتـسي صـبغة الـدهر الأبديـة.. وعنـدما يغـني الـشاعر مـع الأبديـة يجـيء غنائـه أكثـر سـحراً وتعاليـاً.. ويتحـول الإلقـاء – إلقـائي-إلى نـوع مـن (المكاشفة الوجدانية)... البعيدة كل البعد عن (سمة التمسرح).

في أثناء إلقائي لقصيدتي: (كيف نبني السفينة) ((دمشق عام ١٩٧٩م)) وصلت إلى مرحلة بكيت فيها على المنصة وظل الجمهور يحاول إنقاذ الموقف مدة تجاوزت النصف ساعة!

❖ **بعضهم يأخذ عليك وضوح شعرك السياسي.. وهذا المأخذ يقودنا للتساؤل حول قضايا الغموض والوضوح في الشعر.**

صحيح أن ثمة وضوحاً سياسياً مباشراً في بعض قصائدي ولكنه وضوح تقتضيه الضرورة الفنية. أريد أن أقول أن التضاد في العمل الفني لابد منه.

❖ **لابد منه لماذا؟ هل طبيعة الموضوع تفرض مثل هذه الضرورة مثلاً؟**

التضاد ضروري لأسباب عدة فيها ما يتعلق بالصراع اليومي أو الصراع داخل بنية العمل الفني عينه.. ففي عالم الألوان مثلاً ثمة صراع.. فاللون الأسود عندما نضعه في مواجهة ألوان جميلة، فإنه يأخذ بعده كلون في طبيعة التشكيل العام.

وفي ديواني (الوتريات) ثمة الكثير من الأجواء التي تسرح فيها مخيلة القارئ ثم تأتي المقاطع، التي تتناول (قابوس) فإذا بها واضحةً وتصرخ بنثريةً تكاد تطلع من الشعر.. وهذه النثرية متقصدة ولها دورها المناسب في حركة القصيدة وصورها وبناءها بشكل عام. والمقصود بذلك أنه في مواجهتنا لعالم الحلم والطموح ثمة عالم قمئ ووسخ ونعانيه ولا بد من زرعه كشهادة للتاريخ شهادة على مرحلة معينة، يعود إليها إنساننا العربي ربما بعد قرن أو قرنين.

❖ **لكن ما يحصل في شعرك أن هناك مباشرة بأكملها؟**

-ليس في شعري قصائد مباشرة بأكملها.

❖ **قصيدة القدس مثلاً؟**

لا أعتقد ففي هذه القصيدة من الجماليات ما لا يحصى. عندما أقول:

في تلك الساعة من شهوات الليل

وعصافير الشوك الذهبية

تستجلي أمجاد ملوك العرب القدماء

وشجيرات البر تفيح بدفئ مراهقة بدوية

يكتظ حليب اللوز

ويقطر من نهديها في الليل

وأنا تحت النهدين

إناء

في تلك الساعة حيث تكون الأشياء

بكاءً مطلق،

كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية

أستقبل روح الصحراء

يا هذا البدوي الضالع بالهجرات

تزود قبل الربع الخالي

بقطرة ماء

هل في هذا النموذج الشعري مباشرةً.. أعتقد أنه لوحة من البناء الجمالي المتتابع الذي يثير شهية الخيال.

....

....

....

- ❖ **اللغة هل هي قارب توصيل للناس؟**

-التوصيل هو أحد مهمات اللغة.

- ❖ **ومن المهمات الأخرى؟**

- المساورة.

❖ **ماذا تعني كلمة (المساورة)؟**

- إنها تعني (الحديث الداخلي).. ساورتني نفسي مثلاً.. وعلى الرغم من أن الانسان لا ينطقها ، إلا أنها تبقى قائمة كلغة ، بينه وبين نفسه. إنها لغة التأمل الداخلي.. يعني أن يحكي الانسان ويسر لنفسه بمفردات دون أن ينطقها..(الدندنة) أيضاً هي نوع من اللغة ليس المقصود منه إيصال شيء بقدر ما المقصود التعبير عن فرح معين.. عن حجم معين.. إلخ.

....

....

....

❖ **ماذا عن شعرك العامي. منذ فترة طويلة لم تعد تكتب شعراً عامياً لماذا؟**

- الحقيقة أنني مازلت أكتب بالعامية. لكن ابتعادي عن العراق كوّن لي إشكالية على هذا الصعيد. فالعامية لها علاقة بالفرد العراقي.. في الأهوار، في المستنقعات، في الريف، في المدينة، في أثناء عمله ، وأوقات أفراحه وأحزانه..

ومع ذلك فقد كتبت، ولم يتوفر لي إلقاء هذا الشعر إلا في حلقات خاصة، تضم بعض الأصدقاء والمعارف.

* * *

محطات في حياة الشاعر مظفر النواب

هو مظفر بن عبد المجيد النواب، والنواب تسمية مهنية، قد تكون جاءت من النيابة، أي النائب عن الحاكم، إذْ كانت عائلته في الماضي تحكم إحدى الولايات الهندية.

فهذه العائلة العريقة، بالأساس، من شبه الجزيرة العربية، ثم استقرت في بغداد، لأنها كانت من السلالة المباركة للإمام الورع التقي موسى بن جعفر(الكاظم) عليه السلام، الذي استشهد غيلة بالسم، في زمن الخليفة هارون الرشيد، فهاجرت العائلة ومن يلوذ بها ويشايعها إلى الهند باتجاه المقاطعات الشمالية (بنجاب، لكناو، كشمير).

ونتيجة لسمعتهم العلمية المدوية وشرف نسبهم، أصبحوا حكاماً لتلك الولايات الهندية في مرحلة من المراحل..

وبعد استيلاء الإنكليز على الهند، أبدت العائلة روح المقاومة والمعارضة المباشرة للاحتلال البريطاني الغاشم، فاستاء الحاكم الإنكليزي من موقف العائلة المعارض والمعادي للاحتلال والهيمنة البريطانية.

وبعد قمع الثورة الهندية- الوطنية، عرض الإنكليز على وجهاء هذه العائلة النفي السياسي، على أن يختاروا الدولة التي تروق لهم، فاختاروا العراق، موطنهم القديم ومنبع الإلهام، حيث تغفو أمجاد العائلة العريقة على حلم الحقيقة ونشوة الماضي وعظمته، بالإضافة إلى وجود النجف الأشرف والعتبات المقدسة، وكنوز الآباء والأجداد من نفائس المخطوطات في الفقه والأدب والشعر واللغة، فارتحلوا إلى العراق، ومعهم ثرواتهم الكبيرة، من ذهب ومجوهرات، وتحف فنية نفيسة.

ولد مظفر النواب في بغداد- جانب الكرخ في سنة /١٩٣٤/ في أسرة ثرية ارستقراطية تتذوق الفنون الجميلة والموسيقا وتحتفي بالأدب..

❖ في أثناء دراسته في المرحلة الابتدائية، وكان في الصف الثالث، اكتشف أستاذه في المدرسة الابتدائية، موهبته الفطرية في نظم الشعر وسلامته اللغوية والعروضية...

❖ في المرحلة الإعدادية، أصبح ينشر ما تجود به قريحته في المجلات الجدارية التي تحرر في المنزل، كنشاط ثقافي عملي من قبل طلاب المدرسة.

❖ تابع دراسته في كلية الآداب بجامعة بغداد، في ظروف اقتصادية صعبة، حيث تعرض والده الثري إلى هزة مالية حادة أفقدته ثروته، وسلبت منه قصره الأنيق، الذي كان يموج بندوات فكرية وشعرية، وتقام في ردهاته الرحبة الاحتفالات بالمناسبات الدينية، والحفلات الفنية المتميزة على مدار العام.

❖ بعد سنة/١٩٥٨/، أي بعد انهيار النظام الملكي في العراق ومصرع الملك الشاب، ثم تعيينه مفتشاً فنياً، بوزارة التربية في بغداد، أتاحت له الوظيفة الجديدة، تشجيع ودعم الموهوبين من موسيقيين وفنانين تشكيليين، لئلا تموت موهبتهم وتنتحر في دهاليز الأروقة الرسمية، والدوام الشكلي المقيت.

في سنة/١٩٦٣/، اضطر لمغادرة العراق الجمهوري، بعد اشتداد التنافس الدامي بين القوميين والشيوعيين، الذين تعرضوا إلى الملاحقة والمراقبة الشديدة من قبل النظام الحاكم، فكان هروبه المثير إلى إيران عن طريق البصرة.. إلاّ أن المخابرات الإيرانية(السافاك) ألقت القبض عليه، وهو في طريقه إلى روسيا، حيث أخضع للتحقيق البوليسي، وللتعذيب الجسدي النفسي، لإرغامه على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

❖ في ١٩٦٣/١٢/٢٨، سلمته السلطات الإيرانية إلى الأمن السياسي العراقي، فحكمت عليه المحكمة العسكرية العراقية بالإعدام، إلاّ أن المساعي الحميدة التي بذلها أهله وأقاربه أدت إلى تخفيف الحكم القضائي إلى السجن المؤبد.. إنهما أمران أحلاهما مرّ...

❖ في سجنه الصحراوي واسمه (نقرة السلمان) القريب من الحدود العراقية- السعودية ، أمضى وراء القضبان مدة من الزمن، وبعد ذلك نقل إلى سجن (الحلة)، الواقع في جنوب بغداد.

❖ في هذا السجن الرهيب الموحش، قام النواب هو ومجموعة من السجناء السياسيين، بحفر نفق من الزنزانة المظلمة، يؤدي إلى خارج أسوار السجن، فأحدث هروبه مع رفاقه ضجة مدوية في أرجاء العراق، والدول العربية المجاورة...

❖ بعد هروبه من السجن، توارى عن الأنظار في بغداد، وظل مختفياً فيها ستة أشهر، ثم توجه إلى الجنوب (الأهواز)، وعاش مع الفلاحين والبسطاء حوالي السنة. وفي سنة /١٩٦٩/ صدر عفو عام عن المعارضين السياسيين، فرجع إلى سلك التعليم مرة ثانية.

❖ عادت أغنية الشيطان مرة ثانية.. حيث حدثت اعتقالات جديدة في صفوف الشيوعيين، فتعرض مظفر النوّاب إلى الاعتقال مرة ثانية، إلاّ أن تدخل الرفيق البعثي علي صالح السعدي، قد أدى إلى إطلاق سراحه.

❖ غادر بغداد إلى بيروت في البداية، ومن ثم إلى دمشق، وراح ينتقل بين العواصم العربية والأوربية، واستقر به المقام أخيراً في دمشق.

❖ يبدو أن هذه التجربة الجديدة في حياته، تجربة إدمان التشرد، والتنقل المفاجئ بين الدول والقارات، أبعده عن الالتزام الحزبي والتنظيمي، لذلك كرس حياته لتجربته الشعرية الفذة، وتعميقها، وتأصيلها، والتصدي الواعي للأحداث السياسية والوطنية، التي تلامس بشفافية مفرطة بالأناقة وجدانه الذاتي وضميره الوطني.

قصائد ونصوص مختارة

لمظفر النوّاب

شاعر المعارضة السياسية والغضب القومي

محمد الدرّه

يا محمدُ الدرّه

لم تكنْ

تتقي

وابلَ المجرمين

بظهر أبيك

ولكن ترصُّ عزيمتهُ

لاختراق الرصاص

ورغم صراخك

كم كان صوتك عذبا

كأنَّ جميعَ الطيورِ لقد ذبحت

وهيَ تشدو

وبين الرصاص .. لمحتُ حذاءَك

كان صغيرا..

ولكنه قدرٌ لا مناص

وغطّى دمُ الوطن العربي قميصَك

كلُّ الرصاص يوجَّه للوطن العربي!!

ومازال لم يفهم الأغبياءُ،

بأن الرصاصَ طريقُ الخلاصِ

محمد!

قد كشفتْ قمةُ العهر

عن كل عوراتها

خُطبُ الذلّ باعتْ دماءك

كلا

فأنت المحالُ الذي لا يباعُ

وأنت الترابُ الذي لا يباعُ

وأنت السماءُ

وأنت القصاص

* * *

دماؤك مازال الحسين مقاتلاً

في تشيع الشهيد عباس موسوي

محفة راحات تموج بنعشه

كان سموات إلى الله ترفع

حشود صلاة للجهاد يؤمها

علي إلى أحتافها تتدافع

وتأبى يسير النعش

فيك مكبرا

لغير جنوب أنت منه المواجع

دماؤك

مازال الحسين مقاتلا

ولحمك

مازالت تذود الأشاجع

وكل أصبع مما تـناثر من يديك

كما السنا

أصابع بارود بهم وأصابع

وجبهتك الزهراء

ترسم في الثرى

فلسطين للأجيال ما أنت راكع

فإن قمت، قامت للصلاة مآذن

أهلتها –مما تذوب – خواشع

وأسمع عبر الدهر فيك ((وأجتهد))

وتلك لمنها تستمد المراجع

وإن اجتهادي

كاجتهادك

إنما

أرى الله فينا

والغرام مواقع

* * *

وتريات ليلّية

الحركة الأولى والثانية

١٩٧٠-١٩٧٥ م

مدخلان:

(١)

أوه .. يامعلمي، إن غيابك قد كشف العالم

و روّج للذين يدفئون بيضة فاسدة

فلماذا أنت في الغيبة وكأنك تشارك يا معلمي

(٢)

وفي الليل ساعة بنفسجّية لا يعرفها الآخرون،

التقي بجسد العشق فيها ونسمع أصوات الشاطئ الآخر

إشارة:

حـزن غـولي بـالآلات الوتريـة الـضخمة، تـشقه صـرخات مـضيئة حـادة حـادة بالوتريـات الناعمـة.. أمـام وراء بـلا ومـضة إثـارة، يعطيـان الوتريـات تـضوّرها المـوحش المخيـف، وتحـدياتها وأفراحهـا الناعمـة القويـة في قلـب ذلـك الـنغم الـورائي المسيطر.. التنـاقض يـستمر حتـى النهايـة يتشبث ببعـضه حتـى تنتـصر الحيـاة بـأن تنـبجس ورقـة خـضراء صـغيرة علـى ذلـك المـوت الـذي يقـرع بطبلـه منـذ الأزل.. وخـلال ذلـك تهـوّم انـسجاما ذاتيـة مفرطـة الأناقـة والتأمـل، مقابـل نثريـة فظـة هـي التنـاقض الآخـر الضروري، وشيئاً فشيئاً تهلك تلك التفاصيل والجزئيـات المهمـة ليطـل مهيب التوليـف الذي لم أصل إليه بعد، ولكنـه يـدور بقلبي، وأوشـك أن أذوقـه في الحركـة الرابعـة من الوتريات بأنها محـاولتي باتجـاه بنـاء سيمفوني ملحمـي يولـف بـين التـأجج الفـردي المتعجل وخطى التأريخ الثقيلة البطيئة الواثقة. هنا حركتـان مـن الوتريـات، ومـا زلـت أغور في لجج الحركة الرابعة التي يرتفـع فيهـا نـشيد الجوقـة البـشرية مرافقـا شـروق الشمس في داخل الإنسان:

الحركة الأولى

أما أنا فلا أخلع صاحبي

عاشرته وخبرته وعرفته

ولذا لا أخلع صاحبي

من هذه الأرض ابتدأت دعوة، ابتدأ بها اسماعيل

ثم تلاقفها القرامطة، وأنا قرمطي أولئك قالوا:

مشاعة الأرض.. ومشاعة السلاح.. ولكن لم يقولوا

مشاعة الإنسان، وأنا أيضاً مع مشاعة الأرض ومشاعة السلاح

ولكن لست مع مشاعة الإنسان.

مظفر

في تلك الساعة من شهوات الليل

وعصافير الشوك الذهبية

تستجلي أمجاد ملوك العرب القدماء

وشجيرات البّر تفيح بدفء مراهقة بدوية

يكتنظ حليب اللوز

ويقطر من نهديها في الليل

وأنا تحت النهدين، إناء

في تلك الساعة حيث تكون الأشياء

بكاء مطلق

كنت على الناقة مغموراً بنجوم الليل الأبدية

أستقبل روح الصحراء

يا هذا البدوي الضالع بالهجرات

تزوّد قبل الربع الخالي

بقطرة ماء

* * *

كيف اندسَّ بهذا القفص المقفل في رائحة الليل؟

كيف اندسَّ كزهرة لوز

بكتاب أغانٍ صوفية!؟

كيف اندسّ هناك،

على الغفلة مني

هذا العذب الوحشي الملتهب اللفتات

هروباً ومخاوف

يكتب فيَّ

يمسح عينيه بقلبي،

في فلتة حزن ليلية

يا حامل مشكاة الغيب بظلمة عينيك!

ترنّم من لغة الأحزان،

فروحي عربية

* * *

يا طير البرّ

أخذت حمائمَ روحي في الليل،

إلى منبع هذا الكون،

وكان الخلقُ يفيضُ

وكنتُ عليَّ حزين

وغسلت فضاءك في روح أتعبها الطين

سيرحل هذا الطين قريبا،

تعب الطين

عاشر أصناف الشارع في الليل

فهم في الليل سلاطين

نام بكل امرأةٍ

خبأ فيها من حرّ النخل بساتين

يا طير البرق! أريد امرأةً دفء

فأنا دِفء

جسداً كفءً، فأنا كفء

تعرق مثل مفاتيح الجنة بين يديَّ وآثامي

وأرى فيك بقايا العمر وأوهامي

يا طير البرق القادم من جنّات النخل بأحلامي!

يا حامل وحي الغسق الغامض في الشرق

على ظلمة أيامي

احمل لبلادي

حين ينام الناس سلامي

للخط الكوفيّ يتم صلاة الصبح

با فريز جوامعها

لشوارعها

للصبر

لعليّ

يتوضأ بالسيف قبيل الفجر

أنبيك علياً

مازلنا نتوضأ بالذلّ ونمسح بالخرقة حد السيف

ما زلنا نتحجج بالبرد وحرّ الصيف

مازالت عورة عمرو بن العاص معاصرةً

وتقبّح وجه التاريخ

مازال كتاب الله يعلق بالرمح العربية!

مازال أبو سفيان بلحيته الصفراء،

يؤلب باسم اللات،

العصبيات القبلية

مازالت شورى التجار، ترى عثمان خليفتها

وتراك زعيم السوقية!

لوجئت اليوم

لحاربك الداعون إليك

وسمّوك شيوعية

* * *

ماذا يقدح في الغيب الأزلي؟

أطلّوا..

أسيف عليّ

قتلتنا الردة يا مولايَ كما قتلتك بجرح في الغُرَّة

هذا رأس الثورة

يحمل في طبق في قصر (يزيد)

وهذي (البقعة) أكثر من يوم سباياك

فيا للّه وللحكّام ورأس الثورة

هل عرب أنتم!!؟

والله أنا في شك من بغداد إلى جدة

هل عرب أنتم

وأراكم تمتهنون الليل

على أرصفة الطرقات الموبوءة

أيام الشِدَّة!

يا ملك البرق الطائر في أحزان الروح الأبدية

كيف اندسَّ كزهرة رؤيا

في شطحة وجد صوفية!؟

يمسح عينيه بقلبي،

في غفلة وجد ليلية

يكتب فيَّ

يوقظ فيَّ

ماذا يكتب فيَّ

ماذا يوقظ فيَّ

يا مشمس أيام الله بضحكة عينيك!

ترنم للغة القرآن

فروحي عربية

* * *

قتلتـنا الردّة

قتلتـنا الردّة

قتلتـنا الردّة

قتلتـنا أن الواحد منا يحمل في الداخل، ضدّه

أنبيك تلوث وجه العنف،

وضجَّ التاريخ دعاوى فارغةً

وتجذّ من لياليه

يا ملك الثوار!

أنا أبكي من القلب لأن الثورة يزنى فيها

والقلب تموت أمانيه

يا ملك الثوار! تعال بسيفك

إن طواويس ((يزيد)) تبالغ في التيه

يا ملك الثوّار أنا في حلّ

فالبرق تشعب في رئتي

وأدمنت النفرة

والقلب تعذر من فرط مراميه

والقلب حمامة برّ لألأها الطلُّ

تشدو،

والشدوُ له ظلٌّ

والظل يمد المنقار لشمس الصحراء

لغة ليس يحل طلاسمها، غير الضالع بالأضواء

والظل لغات خرساء

وأنا في هذي الساعة

بوح أخرسُ

فوق مساحات خرساء

أتمنى عشقاً خالص للّه

وطيب فم خالص للتقبيل

وسيفا خالص للثورة

* * *

يا طير البرق! تأخرت فإني أوشك أن أغلق العمر ورائي

أوشك أن أخلع من وسخ الأيام حذائي

ياللوحشة!

اسمع:

فوراء محيطات الرعب المسكونة بالغيلان

هنالك قلعة صمتٍ

في القلعة بئر موحشة كقبور ركّبن على بعض

آخر قبر يفضي بالسر إلى سجن

السجن به قفصٌ تلتف عليه أغاريد ميتة

ويضم بقية عصفور مات قبل ثلاثة قرون

تلكم روحي

منذ قرون دفنت روحي

منذ قرون وئدت روحي

منذ قرون كان بكائي

أبحث عن ثدي يرضعني

فأنا خاوٍ

وأريد حليب امرأةٍ، بإنائي

* * *

في تلك الساعة من ساعات الليل يجوع إنائي

والكلمات يصلن لحد الإفراز

في العاشر من نيسان بكيت على أبواب (الأهواز)

فخذاي تشقق لحمهما من أمواس مياه الليل

أخذت حشائش برية

تكتظ برائحة الشهوة

أغلقت بهن جروحي

لكن الناموس تجمّع في خيط الفردوس المشدود كنذر

في رجلي

ناديت:

إله البر سيكتشفوني

وساقتل في البرّ الواسع

والريح على أفق (البصرة) تذروني

ويد الطين ستمسح عن جبهتي المشتاقة

نيران جنوني

في العاشر من نيسان

نسيت على أبواب الأهواز عيوني

وتجمع كل ذباب الطرقات على فم الطفل

ورأيت صبايا فارس يغسلن النهد بماء الصبح

وينتفض النهد كرأس القط من الغسل

أموت بنهد، يحكم أكثر من كسرى في الليل

أموت بهنّ

تطلعن بخوف الطير الآمن في الماء

إلى قسوة ظلي

مَنْ هذا المتسربل في الليل بكل زهور النخل؟

تتأججٍ فيه الشهوة من رؤيا النخل الحامل في الليل

شبقافي لحم امرأة

كالسيف العذبِ الفحل!؟

من هذا الماسك كل زمام الأنهار

يسيل على الغُربات كعري الصبح

يراوغ كل الطرقات المألوفة في جنّات الملح

يواجه ذئبية هذا العالم

لا يحمل سكينا!!؟

يا أبواب بساتين الأهواز!

أموت خنينا

يا أبواب الأهواز! أموت حنيناً

غادرت الفردوس المحتلَ

كنهر يهرب من وسخ البالوعات حزينا

أحمل من وسخ الدنيا

أن النهر يظلُّ .. يظلُّ .. أمينا

أن النهر يظلُّ..

فأين امرأة توقد كل قناديلي؟

فالليلة تغتصب الروح حزينا

هذا طينك يا اللّه يموت بي العمرُ

ويشتعل الكبريت

جنونا

هذا طينك قد كثرت فيه البصماتُ

وأفسق فيه الوعي سنينا

هذا طينك.. طينك.. طينك.. تتقاذفه الطرقات

بليل المنفى والأمطار

دلتـني الأشعار عليك..

فكيف أدلّ عليك بجمرة أشعاري

جعلتـني الدمعاتُ كمنديل العرس طرّيا..

لا أجرح خداً

خذني وامسح فانوسك في الليل

تشع بكل الأسرار

لا تلم الكافر في هذا الزمن الكافر

فالجوع أبو الكفّار

مولاي!

أنا في صف الجوع الكافر

ما دام الصف الآخر يسجد من ثقل الأوزار

وأعيذك أن تغضب مني

أنت المطويٌّ عليك جناحي في الأسحار

* * *

إله نجوم البحر!

لقد أبحرت إليك

كآخر طير في البرّ

وكادوا يقتـنصوني

إله البحر! سيكتشفوني

إله البحر! ألست تشمّ مساحات سكاكين

الدم، سيكتشفوني

سباخك يا ربّ الليل!

يشدّ على قدميّ المتورمتين

وأقدامي تهرب في قلب عدوي

صارخة

وسيكتشفوني

انقذ مطلقك الكامن في الإنسان

فإن مُدى المتبقين من العصر الحجري

تطاردني

أنقذني من وطني

إذْ ذاك التف على جسدي الواهن روح المطلق

متنشحاً بالقسوة والنرجس والزمن

حملتـني ريح الغيب إلى درب

تترقرق فيه بواكير الصبح

وأول عصفور زقزق في الأفق الأزرق ملتهبا

آمنٌ

آمنٌ.. آمنٌ

أيقظ خبزي

أيقظ في القرية رائحة الخبز

فغافلني تعبي والشبق المتأصل فيَّ وجوعي للإنسان

فدقوا باباً موصدةً

ناداني صوت مازال كخيمة عرس عربيّ،

الصوت كذلك أنثى

والغربة حين احتضنتـني أنثى

والدّكة أنثى

من ذاك؟

أجبت كنار مطفأة في السهل

- أنا يا وطني!

من هرَّب هذي القرية من وطني؟

من ركّب أقنعةً لوجوه الناس

وألسنة إيرانية!؟

من هرّب ذاك النهر المتجوسق بالنخل على الأهواز

أجيبوا

فالنخلة أرض عربية

يا غرباء الناس

بلادي كصناديق الشاي مهربةٌ

أبكيك بلادي

أبكيك بحجر الغرباء

وكل الحزن لدى الغرباء مذلةً

إلامَ ستبقى يا وطني! ناقلة للنفط

مدهنةً بسخام الأحزان

وأعلام الدول الكبرى

ونموت مذلة؟

إلامَ أنا وطن في العزلة!؟

يا غرباء الناس! أغض لأن الدمع يجرّح أجفاني

في الحلم يطينني الدمعُ

وتأتي الأفراح كسلسلة من ذهب من كنزك

يا ملك الأنهار بقلب بلادي

أبكيك بلاد الذبح

كحانوت تعرض فيه ثياب الموتى

أمتد إليك كجسر من خشب الليل

وسيعبر تاريح الغرباء

كل جسور الليل تسوسن سوى جسري

أحتك بكل الجدران

كأن الغربة يا قاتلتي!

جرب في جلدي

أنتشهى كل القطط الوسخة في الغربة

لكن نساء الغربة أسماك

تحمل رائحة الثلج

وأتعبني جسدي

يا أي امرأة في الليل

تعالي

فلكل امرأة جسدي

وتدّ عربي للثورة، يا أنثى جسدي

كل الصديقين وكل زناة التاريخ العربي

هنا أرثٌ في جسدي

....

....

....

في تلك الساعة حيث تكون الأشياء هي الشبق المطلق

كنت على الناقة

مذهولاً بنجوم الليل الأبدية

أستقبل روح الصحراء

يا هذا البدوي الممعن بالهجرات

تزوّد للقاء الربع الخالي، بقطرة ماءْ

يا قاتلتي بكرامة خنجرك العربي

أهاجر في القفر،

وخنجرُك الفضيّ بقلبي،

وأنادي:

عشقتني بالخنجر والهجر بلادي

ألقيت مفاتيحي في دجلة أيام الوجد

وما عاد هنالك في الغربة

مفتاح يفتحني

ها أنذا أتكلم من قفلي

من أُقْفِلَ بالوجد

وضاع على أرصفة الشام سيفهمني

من كان مخيّم يُقْرأ فيه القرآن

بهذا المبغى العربي،

سيفهمني

من لم يتزوّد حتى الآن،

وليس يزاود في كل مقاهي الثوريين

سيفهمني،

من لم يتقاعد،

كي يتفرغ للّغو،

سيفهم أي طقوس للسرية في لغتي

وسيعرف كل الأرقام وكل الشهداء وكل الأسماء

وطني علّمني أن أقرأ كل الأشياء

وطني علّمني، علّمني

أن حروف التاريخ مزورة،

حين تكون بدون دماء

وطني علّمني أن التاريخ البشريّ

بدون الحب،

عويلٌ ونكاح في الصحراء

وطني هل أنتَ بكاء الصحراء؟

وطني هل أنتَ بلاد الأعداء؟

وطني هل أنتَ بقية داحس والغبراء!؟

وطني أنقذني

رائحة الجوع البشري مخيفة

وطني أنقذني

من مدن سرقت فرحي

أنقذني من مدن يصبح فيها الناس

مداخن للخوف وللزبل مخيفة

من مدن ترقد في الماء الآس،

كالجاموس الوطني،

وتجترّ الجيفه

أنقذني كضريح نبي مسروق

....

....

....

من باع فلسطين سوى أعدائك أولئك يا وطني!

من باع فلسطين وأثرى – بالله-

سوى قائمة الشحادين على عتبات الحكّام ومائدة الدول الكبرى

فإذا أذنَ الليل

تطقّ الأكواب، بأن القدس عروس عروبتـنا

أهلاً .. أهلاً..

من باع فلسطين سوى الثوّار الكتبة

اقسمت بأعناق أباريق الخمر

وما في الكأس من السمّ

وهذا الثوريّ المتخم بالصدف البحري ببيروت

تكرش حتى عاد بلا رقبة

أقسمت بثورات الجوع ويوم السغَبَهْ

لن يبقى عربيّ واحد في الشرق إذا بقيت

حالتـنا هذي الحالة

بين حكومات الكسبة

القدس عروس عروبتكم!؟

فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها،

ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب لصرخات بكارتها

وسحبتم كل خناجركم، وتنافختم شرفاً

وصرختم فيها أن تسكت صونا للعرض

فما أشرفكم!

أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة؟!

أولاد القحبة!

لستُ خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم

إن حظيرة خنزير أطهرُ من أطهركم

تتحرك دكّةَ غسل الموتى،

أما أنتم،

لا تهتز لكم قصبةْ

....

....

سيكون خراباً

سيكون خراباً

سيكون خراباً

هذي الأمة .. لا بدّ لها

أن تأخذ درسا في التخريب.

وتريات ليلية

الحركة الثانية

في تلك الساعة حيث تكون الرغبة

فحل حمام

في جبل مهجور

وأضمَ جناحيّ الناريين على تلك الأحجية السرية

وأريج التفاح الوحشي

يغص كذئب ممتلئ باللذة،

كنت أجوب الحزن البشريّ الأعمى

كالسرطان البحري

كأني في وجدي الأزليّ

محيط يحلم آلاف الأعوام

ويرمي الأصداف على الساحل

كم أخجلني من نفسي

هذا الهذيان المسرف

بالوجع الأمي

فإني أتـنبأ أن بذور اللذة مدت ألسنة خضراء وشفرات في رحم الكون

وأعطت جملا أبدية

....

وجيء بكرسي حفرت هوة رعب فيه

ومزقت الأثواب عليّ

ابتسم الجلاد كأن عناكب قد هربت

أمسكني من كتفي وقال، على هذا الكرسي خصينا بضع رفاق

فاعترف الآن

اعترف   اعترف

اعترف الآن

عرقتُ .. وأحسست بأوجاع في كل مكانٍ من جسدي

اعترف الآن

وأحسست بأوجاع في الحائط

أوجاع في الغابات وفي الأنهار، وفي الإنسان الأول

أنقذ مطلقك الكامن في الإنسان

توجهتُ إلى المطلق في ثقة

كان أبو ذرّ خلف زجاج الشبّاك المقفل

يزرع فيّ شجاعته فرفضت

رفضت

وكانت أمي واقفة قدّام الشعب بصمت .. فرفضت

اعترف الآن

اعترف الآن

رفضتُ

وأطبقت فمي،

فالشعب أمانة

في عنق الثوري رفضتُ

تتقلص وجه الجلادين

وقالوا في صمت أجوف:

نتركك الليلة..

راجع نفسك

أدركت اللعبة

في اليوم التاسع كفوا عن تعذيبي

نزعوا القيد فجاء اللحم مع القيد،

أرادوا أن أتعهد،

أن لا أتسلل ثانية للأهواز

صعد النخيل بقلبي..

صعدت إحدى النخلات،

بعيداً أعلى من كل النخلات

تسند قلبي فوق السعف كعذقٍ

من يصل القلب الآن!؟

قدمي في السجن،

وقلبي بين عذوق النخل

وقلت بقلبي: إياك

فللشاعر ألف جواز في الشعر

وألف جواز أن يتسلل للأهواز

ياقلبي! عشق الأرض جواز

وأبو ذرّ وحسين الأهوازي،

وأمّي والشّيبُ من الدوران ورائي

من سجن الشاه إلى سجن الصحراء

إلى المنفى الربذي، جوازي

وهناك مسافة وعي،

بين دخول الطبل على العمق

السمفوني

وبين خروج الطبل الساذج في الجاز

ووقفت وكنت من الله قريبا

وَمَا هُمْ .. ولكنه العشق

هام لم يدر

متى أطفأهُ الشوقُ

وأين احترقا!

سنَةٌ

ما بين كأسين

غفا

ثم صحا

واغتبقا..

سقطت زهرةُ لوزٍ

عفة

في كأسه

أجمرتْ عيناهُ شوقاً

وتلظى شبقا

تركت من تاجها

في خمره

غيمة تغرقُ

فاستل إليه الغرقا

تطرقُ الحانةُ

في أطرافه

حُزناً

فان حَدّقَ،

صارت حدَقا..

عرف الدُنيا،

طريقاً

بين كأسين،

فشقّ الدمعُ في خديه منها،

طُرُقاً

صحبُهُ ناموا على أعناقهمْ

وغدوا

من طاولاتِ الخمرِ

إلا رَمَقا

وهو ينضُو

بين أعناق القناني

عُنُقا

وبعينيهِ

يلمُ الغسقا

يدفعُ الكأسَ

لكفي خلّه

ربما ينشرُ

فالقنينة الكُبرى

أشرأبت

والضُحى بالبابِ

رشَ الحبقا..

يا مُويلاي!

على الصمت،

نداماها ثقالاً غادروا

مزقٌ تسحبُ منهمُ

مَزقا

أخذتُهم طُرُقٌ .....

عادت سريعاً دُوَنُهمْ

أين أخفتهُمُ؟!!

وكيف البحث في الدَهرِ؟

وأين الملتقى!؟

بهجتي كانوا...

فلما خلَت الأيامُ من ضحكاتهمْ

ضحكتْ في عبها،

مما أُناديهم بعبي

فارغٌ قلبي وملأنٌ

بهمْ

وجديدٌ

رابني كم عَتُقا

أسمعْ القُبرة الصفراءَ

تـنعاهُمْ

تمطُّ الأفقا

والعصافيرُ على طاولة الخمرِ،

فراقٌ ولقا

يتـنهّلن بقايا خمرهمْ

ويُنفضن،

الندى والألقا

لا تُمتْ! يا صاح!

مما خلتْ الحانةُ مِنُهمْ

طارتْ الزهرة

في الريح،

وظلّت عبقا

لا تَمُتْ

لسنا قناني عرق

فارغةٍ

يقذفها الدَهرُ

بنا قد سكر الدهرُ

وقطرناهُ في كأس الليالي،

عرَقا

ثمل الله بنا،

مما فهمنا أدبَ الشُربِ

وأنهينا القناني

حيرة،

في لُغزهِ

سُمّاره كُنَا

وكان الأرقا

سيدي!

مولاي!!

لا تغفُ

تأمل زهرة اللّوزِ

أمن ربعيةٍ ملت؟!!

أنا الأيامُ لم تقدر على رأسي

وقد يَثبت رأسٌ

قلقا

إنْ أكُن أطبقتُ جفنيَّ

فأصحو داخلي

وإذا كأسيَ،

مالتْ

فكما البلبلُ ينسابُ

أنيقا

للسقاْ

يا لكأسي وجبين الصُبح،

كم مالا على بعضهما!

ليس في الحانة غيريْ

وأخو ((الفتحة)) من أياهُمُ

يكتبنيْ!!!

أنا يا (عرص) انقلاب؟ أبيضٌ

من عرق

قطرهُ الدَهرُ....

فمن أنت؟! ومن فوقك؟!

أو فوقكُما؟!!

سبحانُه ماذا من الوردة ناساً

ومن الأقذار ناساً

خلقا!

طائرُ اللّذةِ

مُلقىً بين ضلعيك،

سجيناً

خُذ رُشيقاتٍ

وحرره قليلاً..

ربما يشتاقُ من نافذةِ الحانةِ

لله...

ويُغري الأفُقْا

أنا لم أشركْ

ولم ألقَ سوى الحانة هذي!

اغلق الأبوابَ في وجهي مراراً

وطني...

وأظن الغربة الخرقاء،،

تستكثرُ منها كُوّة

أصرخ منها ألمي..

فحشتها خرقا!

رب سامحُهُمْ وإن لم يسكروا...

كيف يشتاقُ إلى خمرةِ جناتكَ

من لا يعرف الخمرَ

ويشتاقُ صباياها

إذا كان هُنا ما عشقا؟!!!

هائمٌ

لم أدرِ

ماذا أسَرَ الشوقُ

وماذا أعتقا...!؟

سقطت زهرةُ لوزٍ

غيمة

في قدحي

يا رب ما هذا النقا؟!

غرقت..

لم أستطع انقاذها

أصبعي زاغتْ من السُكرِ،

وقلبي شَهقا

ما لها الكرمة لا تعرفُني؟!

أمس رقرقتُ لها

خمرتها

وأنا اليوم على خمرتها

دمعي وأمسي..

رقرقا...

طينتي، قد عُجنتْ كأساً..

فماذا كوّر الطينة

شعراً؟!!

أنت يا ربُّ؟

أم الكوُرُ؟!

أم الطينة طابت خُلُقاً؟

نَطْنَطَ العصفورُ

فيما قد تركنا

من فُتات

وسفحنا حُرقا.

ولوى من عُنقهِ الزيتيّ

حتى مسَّ قاع الكأسِ،

يا أبلهُ!

لم نترك

ولا مثقال سكر..

أبلهُ من عوقا

أدعُ.. رفقاتِكَ

يؤنسن حجار الحانة القفراء

أن كان يُسمى حجراً،

من عاشَ في خمارةٍ

لو سكت السُمارُ يوماً

نطقاْ

يا سُكارى بعدنا..

ان سقطت في كأسُكُمْ

غيمةُ وردٍ..

أذكرونا،

رشفةً

كنا نوازي الدَهرَ.. أو نسبقُهُ

عشقاً،

رعى الله زماناً، وسقى..

إنْ أكُن أفرطتُ..

مولاي!

فهل يقتصد العاشقُ

أم يأبقُ عشقاً؟!!

ضاقت الروحُ

وعظمي من صدود، أبقا

قفصُ الدهر،

كما أنت ترى،

ضايقني..

واشتهتـني لغةٌ من خارج الدهر،

فهزّتْهُ..

فما بال فؤادي،

للذي يُسجن فيهِ

أشفقا

هاجني غُصنٌ نَسيمٌ

راقص بالزهرِ

والخمرُ برأسي لعبتْ

أهو ذنبي،

زهرة من قطرة قد سقطتْ؟!!

ذنبُ من مولاي!

لم يـبق من البستان إلا وهم عود

صامت

لستُ سفيهاً

أبلها..

أسأل عن زهري

ولم تبقِ عليّ الورقا..!

أغمدتَ في قدمي .. فامتشقا.

الصبحوحات بكأسي...

سيدي!..

رُبَمْا أأمن للزهرة كأسي،

من مهب الريح،

أغضبْ مثلما شئت

فعشقي لم يساومك على شيء

وما الجنة والنارُ

سوى نارين

فيمن عشقا

أغمدتْ

فأستلّت السُهْدَ

وقد كنتُ نويتُ

الغسقا

شمتُ

لو أعلم ما شمتُ .. وأتعبُتُهما

كذب الغيمُ،

على حاليَ،

والصحوُ

وإنْ قد صدقا

سيدي!

من عجب في داخل السُكرِ

أصلي..صادقا

مهما تجازيني سراباً

أدمعي تسقيك في بحرِ النقاْ

همتُ...

لا أدري!

عصافير الضُحى

من قدحي ... من صاحبي...

كلهم طاروا...

لئيمٌ صاحبُ الحانة

لم يرحم بقاياي بهمْ

خُذْ أباريقك

أني منك سكرانٌ

سأمضي خلفهم

ربُما ألقاهُمُ...

أحجز كراسي الأمس

لم نندم،

سدى لم يكتف العمر،

وإن كنت غششت العَرقاْ.

اسمعْ القُبرة الصفراء

تـنعانا

تمطُّ الأفُقا

يا خطايا! يا خطايا!

كم كبيرٌ هذه الأيام من كان خطايا!

أنا منُهمْ

توبتي،

لم أنكسرْ،

إلا لتقبيل نُهيدٍ نَزِقا

إنْ يكُن تاب السكارى!.

أنا بالسكر أناجيك

فما جُرحي بالريش، ولا ياربّ

بالريش الثُقا

ليس بي فاحشةٌ

إلا بأني

لذاتي أكثرُ مني خُلُقاْ[1]

* * *

---

(١) الكفاح العربي، ١٩/١١/١٩٨٤.

حسين مزتّر(١)

قدرٌ في تواضُعِه

قدرٌ في بساطه مَشيته

قدرٌ في محاذاته للجدار الذي تزحف الانقلاباتُ منه

ويمشي الهوينا.. إذن

قدرٌ

قدر في تلفت خنصره،

كالعريس الجميل

كرروا لقطة،

كان نفس الهدوء

ونفس الخطى والبلاهة

أتقنها كلّها مثل ختم

وأربى

تحرّك في العدسات

(١) الشهيد الذي نسف السفارة الأمريكية في بيروت.

كأنّ السماوات تُخرجُ فِلماً

وكتَّم في قلبه العزمَ

مُهراً يُكتَّمُ في رئتيه الصهيل

سخروا من غرابة نعليه

لم يشبعا زُرقةً من شواطئ بيروت

فاكتفيا بالرذاذ

كأنهما أذنا زمن

قرَّرَ المستحيل

حمّضوه...

أزالوا الرتوشَ،

عسى يظهرون نواياهُ

أظهرَ صمتَ الحقولِ،

وقُبرةً تترنُم بين الضُحى والظهيرةِ

في دعةٍ تجلبُ الغيمَ

جاءَ السحابُ...

وجاءتْ تـنثُ

فدى يا مزنر عينيك!

ماذا على موجةِ الله كانت تبثُ

ترنّمَ أرغولُ ربَ السماواتِ

غيماً وبرقاً وعشقاً

فلاح المخيّمُ في ومض عينيه

ملتبساً بالجنوب

وصور صيدا كأنّ الجليل

تقحّمَ كُلَ الحوامض

والعدسات

وأجهزة النفي

شالَ السفارة من جذرها

للجنوب هديةَ حُبٍ

((وَجَبْ))

هكذا ستكون الهدايا.

يُصوّحُ جيلٌ عليها

وينبتُ جيل

خَمنوا الانهيارَ

ومن هولهِ خمنوا، وجهَهُ المُتَبرجَ بالصمت

والصيف

والسلسبيل

عرفوه من الابتسام يباشرُ وجه القرى.

وطريق يُتَمتُم مثل الزّمُرد بين الحقول

وطفل يُكوّم ضحكاتهِ

والحجارةَ والدمعَ، ضد هروب الغُزاة.

نعَمْ!

نحن نمنعكُمْ تدخلون الجنوبَ

ونمنعكُمْ تخرجون بدون ضريبة دَمٍ

تُضاعفُ ثانيةً بعد أخرى يؤجلُ فيها الرحيل

خلَفَهُم!!

خلفهُمْ

بالعصيّ ... القناني...

وما يتيسر في يدكُمْ

فلتقلوهُمْ

تتقاضوا ديوناً

مؤجلةً

بالقتيل ثلاثة قتلى

وبالغصن قد جرحتهُ الشظايا قتيل

بالعصيّ...

ولا تتركوا وجهَ دبابةٍ ليس تقطرُ منهُ الدماءُ

أروها الهروبَ المُحالَ

فما من نكوص،

ولا من سبيل

رُزمٌ تتطايرُ

أشياءُ تشبهُ خوفَ الخفافيش تهوي،

وبيروتُ تسقي ابتساماتِها النرجيسية،

في الشرفات الصغيرة

عابثة بجدائلها

والملفات تـنثالُ... تـنثالُ .. مثل النوارس مُفزعَة

والسفير يفتشُ عن نصف أشيائِه في الهواء.

ورائحة الخلّ من أبطيه،

تخلّلُ هذا الصباحَ الطريّ

وحاجبه يرسل الاستغاثة

يُرامُ قياسُ الخراب البهيّ!!!

تُرى أيقاسُ الشمولُ!؟

ودأبُ الجماهير حين تقرّ الخرابَ

طريقُ الخلاص الأخير

وأن يُولد الغدُ بالسبل القيصرية

حتماً

أنا شامتٌ ملء روحي..

مساحة بيروت أضحكُ

لبنان أضحك

أنكحُ بالوسطيين مدافع حاملة الطائرات

وأبراجها..

تبجحها..

والفنار

((وريغن)) إن يقتضي الأمر.

يا سيدي! كلما اتَسَعَ الصُبح

ضاقت عليّ العبارةُ

علمني الدهرُ

قبل البذار أضاعفُ عمق الحراثة

قدرٌ في سخونة جبهتِه

وارتفاع مناخاتها

قدرٌ في التفاتَةِ عينيهِ

كُلُ المرايا تفكر فيها،

ويلتفت الجو في طرب.

قدرٌ في زئير الوقود،

نشيجٌ الجنوب وغضبتهُ وعليٌّ به

قدرٌ حاولوهُ بآخر ما وصلَ العلُم.

ظنوا المشارط تبلغُ صوفية الشرق

ما عرفوا الله يمكر أكثر من مكرهِمْ

من رأى الله شاحنةً!؟؟

من رأى الله لُغماً !؟؟

كميناً!؟؟

فتىً عابساً مثلما البدر في ليلة التّمِ

وفق هويته،

وملفاته في السواقي ورائحة الحقل،

يُدعى ((الحسينُ المزنّرُ))

ووفق الشهادة والألم الكربلائي في صوته والثبات

الحسينُ بن فاطمة

((والحسين الرضيّ))[٢]

ووفق الزمان الجديد،

---

(٢) قائد الحزب الشيوعي العراقي، صُفي في انقلاب عام ١٩٦٣.

هو الشعبُ ليس يخون الغدينِ،

غداً وتراثه

كيف تكتشفُ العدسات مؤامرة القلب.

والاهتزاز الربوبيّ للهُدب؟

يبسملُ بالقمح والصبح والريح والتين،

والضيعتين المقاتلتين

ورائحة النرجس العصبيَّ

ويشعر طعمَ الشريط الحدوديّ مثل الصراط

يضاعف زرقَةَ نعليه

يضغط أضلاعه كالصلاةِ على المقود المتوهج

يا من رأى الله شاحنةً ليس تلوي!

ويُملي انفلات إرادتِه

واكتراثه

كيف تكتشف العدسات الدقيقة

رُكن الشهادةِ.

في حاملات الوراثة؟!

كيف تفهمُ تقنية العالم المتُحضرِ

أعصابنا تتخللُ هذا. الترابَ

تـنفسُ بنتٌ،

فينبتُ حوضٌ من الياسمين

ويركض طفلٌ

فيشهقُ بين أصابعهِ النرجسُ الغّرُ مثل الرنينْ

ومن عرق القلب

تزقو الشقائق حمراء،

عابقة بالشجن

كيف يكتشفونَ ((الحُسين)) من الدهر يأتي

بشاحنة

ويزورُ سفارتهم بالقنابل

بعد قليل يزور العواصمَ

بعد قليل يزور العواصمَ...

تافهة كُلّ هذي العواصم،

تـتخذُ الاحتياطات

تلبسُ ثوبَ الدماء وليس بها خدش.

ولو كان خدش حياء

أحسُّ دوي المحرك في عصبي..

إن هذا القديم أشدُّ معاصرةً

ويداهُ وإن حزُنتا من وتينِ

تديران بعد الصراع،

وتستبقان الزمن.

إذا الثوريونَ صاروا يمين التجارة والقمع

وأستلزموا...

يستديرُ بمقودهِ نحوهُمْ

نحوهم...

نحوهُمْ!

ليس هذا يسارُ التغير يا سيدي!

بل يسار الفتنْ.

ليس هذا سهرنا لهُ الدهرَ

نخفي الجروحَ وننكر خيبتنا كبرياءً...

لقد غيبوا الأصل،

واستبدلوه بمسخٍ

يمنُّ علينا هزيمته والمنافي

ويسترُ عورته بالوطن.

ليس هذا!!!

فهذا تتمةُ قمع نعانيه

في كل يوم يُزوّر أوراقَهُ

ويُسرّ بآذاننا...

ما يشينا به في العلَنْ

قدرٌ أنّ نعلين لم يشبعا زرقةً

ناصبين كصقرين فوق الرُكام

كأنَ السفارةَ صيدهُما

كيف لو خرج الشعب بالنعل لا غير

واحترم الحاكمين بها

وتقاضي إذا مزقتها الوجوه الغليظة

منها الثمن[٣].

* * *

---

(٣) نقلاً عن مجلة الكفاح العربي، ١٤ تشرين الأول (اكتوبر)١٩٨٤م.

أيّها القبطان

اسقنيها

و افضحي فيَّ الظلاما

بلغت نشوتَها الخمرةُ

في خديك

نثر الورد في كأس الندامى

وروت مبسمَ وردٍ

نزع التاج وألقاه بأرواح السكارى

بمعانٍ نزعت ألفاظها

وقف العشقُ على كفيهِ مجنوناً من النشوة

والعود ارتخت أوتارهُ

واللحنُ قاما

وانتضائي ضائعَ اللُّب

بعينيّ من السُكر دَمُ العصفور

والجفن انكساراتُ خزامى

جسدي مرتعشٌ بالطّل

أنضوه

كأني أُفعوانٌ،

ترك الثوبَ السموميّ،

على صكةِ نهديك ضراما

متعبٌ

أبصم إن حستـني جسمي،

فإني لستُ ألقاه

وإن قد أشعل الليلَ

أنيناً وسقاما

ربما يقوى على حملي

إلى بيت تعودتُ على فقدانه،

ألقاهُ في عيني

وأغفوه

كأن الكون ناما

* * *

رسموا بحراً من الحبر

وحطوا مركباً فيه

ويا غافلُ! يا أنت لك اللّه

ركبنا!!!

فوجدنا نفسنا في ورق الرسم

بلا صوتٍ!

ومشطوبين بالأحمر!!!

والقبطان مشروخاً إلى كعبيه بالذُل

أدفعوني

ومضى يفتكُ بالنسوة في قمرتهِ العُليا

اهتماماً بالجماهير،

وبالفخذ اعتصاَما!

أيُّها القبطان زوراً!

ليس بالمركب والبحر ثقوبٌ

إنما أنتَ هو الثقب

ولن يمنحَك البحر احتراما

تدّعي المركب! هيهات!!!

ومن أين ولم تُبحر؟

وتاريخك وَحْلٌ

ودَمُ النوتيةِ الأمجادِ في عُنقِكَ

أصبحتَ على البحر إماما!!!؟

أسقينها

لم يزل للبحر في رأسي، دويٌّ

والمدى لعبةٌ أطفالٍ بكفي

وتُقى أشربُها

راحاتُها استغفرت الله لنا

والعُودُ يلتفُ،

كمن يعتصر الروحَ ضرُاما.

أسقينها وفدى خُفيك من يشربُ خمراً

وهو لا يعرف للخمر مقاما.

أيها الشاربُ

إنْ لم تك شفافاً رقيقاً

كزجاج الكأس،

لا تدخل طقوس السكر والكينونةِ الكُبرى

فسوءُ الخمر يؤذي،

بينما يقتل سوءُ الخُلقَ

فاشربها كريماً دَمِثاً

تطمعُ أنَّ النارَ تستثني الكراما

* * *

قاربَ الأيام

تِهْ بيَّ

وتهني..

فأنا أسمع تيهاً غامض البُعدِ ...

وُزرَّ البحر من خلفي،

وضيّعني أماما..

أبتعدْ عن أيّ شاطئ،

أيُها النذرُ الشُبوبيٌّ

بمقدار نوايا الشمع

تُعطِ البحر بقشيشاً

من الماء اضافيا

وطعماً...

وغماماً...

أنتَ .. أنتَ المركب النشوانُ

ألواحاً

ومجدافاً.. وروحا

تتهادى في نئيج الموج والطير

وصمت المطلق السينيّ

يا سينيُّ !! يا سينيُّ

يا سراً من الأسرار

حققتَ الزمان الضِدَّ

غصناً فارعاً بالورد،

ممشوقاً غلاما.

كاشفاً عن فخذيكَ الجبروتين،

أفاداتٍ من الرزُّ.

وصمتِ الفيروزباديّ

وكل امراءةٍ تُسندها

تسمع

أصوات الغرانيق

وجيش الزنج،

تـنضم..

وتُعطيك الزماما

* * *

أينهُ وعدُ اللذينَ أُستُضعفوا في الأرض

والركض إلى المسلخ يومياً !؟

أنا أصرخُ يا ربُّ! التفت للناسِ

ما هذي القيادات المنافيح فراغاً

تشتكي من سوء هضمٍ،

داخل المخ

وتجترُ نياما

أنا سكران بمن تخلقهم

من نُطفة اللوز،

ونُطقِ الكسل الصيفي

سكرانٌ بمنْ...

ياربُ يا تدري بمن!

يا تدري، يا تدري بمن!

قابضٌ راحي على جمرةِ كأسي

بهدوء ورضى.

أمنحُ دُنيايَ على علاتها أقمار زرقاءَ

وناراً وخياما.

لم أزلْ أرجع للكتّاب

والختمةِ والقرآنِ، طفلا

دائماً ألقاك في شارعِنا الفرعي

تؤويني من الصيف العراقي

بثوبيكَ

وتتلو صبرَ أيوبَ على وجهي

ولكني مهووسٌ غراما:

ببيوت أذِن اللّه بأن يذكر فيها

وكثيراً هيمتـني

((ألم نشرح)...

((والضحى))...

((يا أخت هارون ولا أمُّكِ قد كانت بغيّا))

((زكريا))

((وسليمان بن خاطر)) كان صديقاً نبيا

وإماما

قَبّل القبرَ ((باكياد))

فهذا الهرمُ الطفلُ

احتوى أسرارَ مصر كُلِّها،

وأقانيمَ خلود الروح والطوفانَ والطودَ

أما كان كليمَ الله،

في رابية الطودِ،

وناداه: سليمانُ بن خاطرْ

طهّر البيتَ من الأرجاس وانزل أرضَ مصرٍ،

حذّرْ الأحزاب في دوامة السلطة

والنصفية العاهر

بلغها بأن الله لا يقبل إلاّ بالبواريد

السلاما

يا صُراخَ الكُوة السوداء

يا يحيى نبيّ اللّه!

((سالومي)) تؤي رقصة الموتِ

وألقت آخر الأشياء للستر

على استقلال مصر

والمزامير وصوتُ النقر من بيت رئيس الجيش

صلّ ركعة الموت

فإن الرأسَ مطلوبٌ

ولم تصح الجماهير تماماً.

أسقنيها ...

لا يزالُ الليلُ يشتدُّ

وأشتد

ولا يبدو على الأفق دليلٌ

ربما كلَّتْ من الخيبة عيني

وأضافتْ ظُلُماتٍ

أو يروغ الأفقُ أمعاناً بشيء،

إنما أُبصر من عين الذين استضعفوا

إن أطبقت كُلُّ المقادير جهاما

أنا سكرانٌ بمن تخلقُهُمْ

من نُطفةٍ طاهرةٍ،

مثل مياه الصَبح

في الخدّ قناديلٌ من المسك

وفي العين شرودُ الظبيّ في الصحرا

أنا

أنا سكرانٌ بمن

يا ربُ يا تدري بمن

لا مني الحُبُّ على الحُبّ

فأغويتُ الملاما

أمسكَ الصحبُ السُكارى،

ليلَ ردني

سقط الزرُّ عليهم قمراً

وتدلّي سُلماً خيطٌ

إلى حصته من قدحي،

صار يلتف بروجاً

أيٌّ كونٍ بين كأسي ويدي!!!

ربٌّ! لا تغضبْ، فإني ((استُضعِفوا))

يأخذُ الترتيلُ بالآية لُبّي

فإذا ما بسملتْ شاحنةٌ بالحُزن والبارود

سجّلت على حاشية القرآن

أسما

شاحنات للذين أستضعفوا

أهدافها شتى

فيا حضرة كُتّاب التقارير،

تشيطنتُ

ولم أذكر نظاماً

رافعاً فردةَ سُباطّي

كالهاتف،

كي اشتمُهم.

يا خوات ال!!......

قُطعَ الخطُّ ولم أُكملْ مراسيمَ احترامي

ربما بالفردة الأخرى،

أرادوا الاحتراما

* * *

أسقينها

ودعي سبابتي الحمقاء

تستفتحُ بالنهد

ولا أدري الختاما

أنني صَبٌّ،

أُسمّي كُلّ ما يسلبُ لُبي خمرةً

إن كان حُسناً

أو قُراحَ الماء في كف كريمٍ

أو حزاماً ناسفاً

أو بيت شعر

أو مُداما[1]

(١٩٨٦)

---

(١) الكفاح العربي، ١٩٨٧/١/٥

ملازمٌ عن المسكِ وشتائم جميلة

في بحار الزمان

وفي كلَ دهرٍ

يجيءِ مغنٍ

مخيف المحيطات

تشتو النوارس في حُزنِه.

والشراعُ صباحٌ صغيرٌ بلا كدرٍ.

لا تقدر قيمةُ هذي الوثارة

فروٌ من الضوء يكسوك

خُذْ كاسَ روحكَ للأزرقاق النهائي

واغرقْ،

بكل انسجامكَ،

طائرَ صُبح يشفشف عنه الغمامْ

كان هذا المغني يحبُ التلوث بالياسمين

ويدخل ما بين نهدين،

لا ينضج العمر دونهما،

لفّ خيطاً من الماء في رسغِه

يتقافزُ، فيما حليب الرضاع تـناثر في وجهه،

مثل جَدْيٍ

يريدُ مضاجعةَ الكونِ

عيناهُ تغرورقَان ببلدة عشقٍ

تشاطرها في الهزيع الذئاب

وداوته من حُبها بالفطام

آه مما يجيء، من القلب،

جَرْسُ الصباح على نهرها

وارتكاب الزرازير كل المعاصي سريعاً...

وذات صباح وئيد الشذى

أيقظته على كل هذا الوجود الكريم

وأعطته جفنين لا يصلحان لنومٍ

ويشتهيان الحروفَ اشتهاءً

فكم ليلة خرجت من يديه،

عقود البنفسج في جيدها

غير طاهرة الثوبِ

نشوى...

وأخرى تدق من الغيب. سكرى.

بما ينتوي من عقود

وقد نز من حلمتيها الوحام

دندنات الربيع البدائي، بين أصابعه

وخفوت مياه المساء.

وزلزلتُهُ كانكسار زجاجة عطرٍ

وفوضى زواج العصافير فوضاه

لا يتكي، رغم وجود الربيع، على أي غصنٍ

فما يتكي الجوَّ إلا على نفسه

ويقارب جفنيه للغفو

يَصدح كلٌّ الوجودِ المراهق بينهما

فالنعاسُ تعلم في عينيه

لا ينام

من بعيد يهشّ، يعانقُ كلّ المسافة للناس،

يبسطُ أقصى الطفولة في راحتيه

كأن لدى الناس حلوى

فإن ذهبوا

مسحَ الليل مستوحشا،

مثلما فقمةٌ حاصرتها الثلوج

ودقّ جدار المساء على نجمة تتغيّبُ

أوضاع في موجة الفُلّ

تـنزلُ خلفَ السياجِ

وتذهب

يسكتُ مثل العطور...

قضى العُمر مختلياً بالبساتين يلعبُ

يسرقُ في آخر اليوم قمصانهنَ

يثيرُ بواكير رُمانةٍ

ويروحُ كأن لم يكن أي شيء

يدوس الارساءات مثل بقايا السجائر...

بعضُ الاساءات لا ينطفي

كم أساؤوا!!!

وكم بذلوا من جهودٍ لاخماده في انطفاءاتهم!!!

فيم هذي السكاكينُ ضد الأغاني!!!؟

لماذا يخافون من غصةٍ ملء صدر المغني؟!!!

لماذا يخافون مما يعيدُ اكتشاف المقام

ثملٌ بالشوارع

أحزانهُ لا تـنام

ولا تستفيقُ

مسدسهُ ثقة بالحياة،

إذا حاصرته الكآبةُ كان على نفسه يُفرغُ النارَ

ثم يشاهد في نيل[1] واسط طيراً

توضا باللازوردِ الصباحيّ

نور الشفاعة والسكر في ناظريه

وقلب كثير الخراريف

جمٌّ

طروب.

إذا استفردته الهمومُ

يحزّم صمتَ الأماني،

ويسهرُ بين نقيق الضفادع،

في قصب أخضرٍ كنقيع الزُمرّدِ

لولا الحُباحبُ من كل حدبٍ

تضيء القتـناديل

لا ختبأ الليلُ في صمتِهِ

---

(١) خرج أحد المتصوفة صباحاً إلى نيل واسط((نهر قديم قرب مدينة واسط العراقية)). فرأى طائراً أبيض في وسط النهر فصاح مبهوراً بهذا الجمال الصباحي: ((سبحان الله، يالغفلة العباد)).

وتضيع الدروبُ

ثقةٌ بالحياة مسدسهُ...

أصبع ساجدٌ في الزناد

وباقي الأصابع هائمةٌ في المسافة ما بين نهدين

صناجتين

فإن فرغ المشط

يحشو الفوارغَ بالنظراتِ الجسورة

يأتي كعاصفةٍ

ويسوق المدى والعواصفَ حين يغيبُ

ويخجلُ من نفسه،

إن رأى عربياً بدون سلاح

تـنازل عن نصف زيتونةٍ مُرغماً!

في آخر العُمر أحملُ كُلَّ نخائر قلبي

وزيتونةً لم تُحزَّ بذلٍ

وأطرق بابي القديم،

وأسندُ عند الوجاق مواجع جسمي

وأخرجُ زيتونة الكبرياء

وأزرعها في دروس الصباح

وحقلي الصغير

وفي وطني العربي

ولو أنني قد تـنازلتُ عن نصفها

لـغدا زمني أعوراً

من بيع نصف زيتونةٍ،

ما الضمانة أن لا يبيعَ الفراشَ

وزوجتهُ.. وحليب الصغار.

وعورتَهُ؟

وتحمل بكائي يا ربُّ!

باعوا ثلاثة أرباعهم للذئاب.

بمؤتمر خُلّب

لا يزالون في غرفة العمليات،

مختلفين على حصص الذبح!

يا أكثر الأرض عافيةً!

إن أقسى السكاكين سكينَنا

أرجمي الساكتين سكوت معارضةٍ أو رضى!

حجرٌ منكِ، أشرف من أيِ رأس

إلى حجر منك، منهم أتوبُ

يلبسُ العُشبَ هذا المغني المْقرّحُ

مما نفشن الليالي

يمرّ بكلتا يديه على ذكريات الصبا والمغاني

وأسئلة لا جوابَ لها

ومكاتيب قد قرأ البعض منها

وسيدةٍ وضعت بين شهوةِ عينيه كلّ النذورْ

ساحباً من دهورِ المكاتيبِ

ملزمةً

جمة المسكِ

مثل أغاني التصوف في الليل

كان يعيدُ قراءتها

كلما لبدته المرارةُ والشوقُ

يمعنُ بين السطورْ

عِمْ صباح الجماهير نُورْ[(٢)]

سيد العشق بالبندقية في قفص الاتهام الجسورْ

لفتةَ النسر يلقي شُعاعة عينيه حُكماً

على قانصيه،

---

(٢) الإشارة إلى محمود نور السيد بطل ((ثورة مصر)) ومحاكمته التي جرت في القاهرة.

تجبّرْ

فأنت الحسابُ .. وأنت النشور

أمةٌ تترافع عنك

فأي قضاء يواجهها!!

مَنْ يُدينُ ((أعدوا لهم ما استطعتم))...

ومن ثكلته الثواكلُ

يُلقي الجماهيرَ في السجن قاطبةً

من يقيّدُ رسغَي غدٍ بالحديد،

وقد أزفْ الانتقام!!؟

يفتحون فروعاً لأموالهم ودعارتهم،

يفتح العنفُ جنباً لجنبٍ فروعاً لنا،

فمن البحر للبحر ((ثورة مِصرَ)) فروعٌ لها

والحجارةُ عُملتنا

والرصاصُ

ومصرفنا المركزيّ المخيم والانتفاضةُ

فاقرأ على الظالمين الظلامْ

حجرٌ ليس يحتاجُ زيتاً

ولا قطعاً للغيار

وليس يكلفنا عملةً صعبةً

المحليٌّ معجزةُ الشعبِ

انظر وراء همومك،:

هذا الصغيرُ يطيرُ كقانقةٍ في ((الجليل))،

وذي طائرات الحكومات..

نائمةٌ وتبعررُ!!!

هيا إلى الشارع الآن!

سوفَ، تقولون هذا المغني يُبالغُ

واللّه ...لا ...

أنني شارعيٌّ

واشتمُ من ((كَعَب الدستِ))!

من باع شبراً من الأرض أبن الخنازير قاطبةً

يا جماهيرُ! كل القيادات مفتوقةٌ

سيّما

آه من سيّما!!!

عانقْ الشارعَ الآن يا شعبُ

ولنلتئم بالجليل، وغزة والقدس،

في حجر لا يُضام

اقفِلْ البثَ

هذا القياديٌّ يكذب مثل البقية

في وجهه صالةٌ للقمار

وفي عقله ((غرزةٌ))[٣] لليسار اليهودي

خذ جرعةٌ سيدي!

هذْه من رضى الأرض طعمُ التراب العراقي فيها

تسمَّع غناء العصافير والكون في طعمها

واسمع الآن مني

فإني حكيمٌ إذا دبّ فيَّ الدبيبُ العظيمُ

يدوزنني الناسُ سبحانهم

ليس هذي الحجارة إلاّ مقدمة اللحن

ما سوف يأتي خطيرٌ

ويفتحُ للأرض ثانية أذنيها

على الأنبياء الصغار الجميلينَ

لا بدُ أن تؤمنَ الأرضُ،

مهما تهاض عظام النبيّ الصغير

فضمن النشيد العظيم

---

(٣) الغرزة: مفردة مصرية تطلق على مكان التحشيش.

أنينُ العظامْ

آه من وحشةِ الصمتِ

لم يبق في علبتي

غيرُ عودٍ يزيدُ الظلام انطفاءً

لماذا العراقُ بعيدُ

وكلُ البكاء هنا!؟؟

لا تزال كما كانت العربشاتُ

على حائط الذكريات

ودربٌ صغيرٌ يهيمُ إلى بيتنا

ووجه يجيء من العتمِ

من أنت يا وجهها؟ يا أحبك!

يستيقظ الصمتُ في خاطري من بعيدٍ

ومقهى كأنْ مُسحتْ وأعيدت كتابتُها

والزبائن والطاولاتُ بخط رديء...

وبعضُ سياج لشيء، وعاد بلا أي شيء

ورعشةُ نهر على وجهِ سيدةٍ

علمتني افكر كالعشق،

لكنها الآن تمضي على عجلاتٍ

وتقفل مذياعها اليدويّ الصغير

إذا لم يقلْ نشرةً للحجارة.

تغفو أمام فراغ تركناهُ في قلبها

لا تزالُ إذا دثرت نفسها جيداً بالضحى

وشذى الياسمين

تفكر كالعشقِ،

أو تدفع العجلات وراء مدى حزنها

وتغيب ونظارتاها على حُضنها

في الظلام

لم يزل ثملا

قطٌّ ما عاد يصحو

يمط المجرةَ أكثر من طولها

ويفيق إلى آخر تفاحة في الحديقةِ

رغم أن صلاحية القلب،

مرَّ عليها زمانٌ

وما عاد يمكن أن تتجدد

يفرش إحدى الصبايا،

يصلي الربيع عليها

بلا أي اثم سوى ضمتي شفتيها

كأنهما توبتا قطرتي عسل

والبساتينُ تغسل حسّ أصابعه بالمُدامْ

بدّد العُمر في الغربات الحزينة كالجهل

يغفو بشائعةٍ من خمورٍ

فيوقظ أخرى

يرتلُ في آية البندقية

مقتفياً أثر القاتلين

وعما قريبٍ سيحضرهم في المكان المحدّد قبلاً

ويسكتُ مثل الخرائب في الليل، عن حُزنِه

فالبلاد التي هو منها

سرابٌ

تخافُ الحقائقُ منه

فإن سكن الخلقُ

يأخذ عزلته بزوايا من الله عابقه بالشرابِ

ويثمل بالله سبحانه

والبلادِ التي درجاتُ الكحول بها،

لم تصلها الخمورُ

وبالوهم يسكُرها بين حين وحينٍ

فهذا غرامٌ وهذا غرامْ

كالنعاس يطيشُ،

إذا نتأت في الصباح الضبابي

قبرةُ الذكريات

يمدُّ يديه إلى الأفق يلعبُ بالأزرقاق السماويّ

يا نادل الفجر

للصبح رائحةُ الطفل يرضعُ

قُم للشَمول..

بكأسي الشمول

بلا سكرة ليس ينقشع الليلُ، يا سيدي!

وبلا طلقةٍ ليس ينقشع الدهرُ

قُمْ نتسكعْ بروحي

وإن كان للروح منك طريقٌ ذكي البنفسج

وسّعْ

أنا واحدٌ، لست وحدي

ففي جانحي الأنامْ

صوتُك الغامقُ الفخمُ

يغري الفراشات والذكريات. وحزني..

احتملني كأي شراب عتيقٍ

فلم يبق إلاّ ثمالةُ يومٍ من العُمر

أخشى يجيء الرحيل المقررُ

من دون خمر

ولا أحدٍ

ثَقُلَ الحمل يا صاحبي..

وتعبت بقافلتي، أتهجى المساء المطير

فإذا صاح ذئبٌ

يضيء دجى وحدتي..

ويريني سراباً أسير إليه

ويعجبُ، مما لأجل السرابِ- المسير!

أظن المدى مُدّ لي بالأغاني،

إذا هتف الكروانُ الحزينُ

وأنزلُ أمتعتي عند نهدٍ صغيرْ

غاسلاً غربتي ووجهي..

وأعري وراء جدائلها سيف عُرسٍ.

ويفرش لي الجسدُ اللدنُ

آخر مبتكرات الحرير..

فوق جلدي الممزق ألبسها

ولتبثَ الحقول كما شاءت الشائعات

وتغفو المياهُ التي غسلتـني

وقد أخذت سنةً من نعاسي...

مغيبةً بالأثيرْ

وتـناثر طلع الصباح على قدميها

فختّمت النسماتِ

بأبهامها،

بفتور

رأيت ألف ختم على جسدي قبل قبلتها

آه من أثري شفتين مراهقتين، انمحى،

تاركاً وجعين،

حريقاً نميراً

وطفواً نميرْ

لامست بعض ثوبي

فزقزق حقلٌ

وضاق على جسدي باب وردٍ

كثير الصريرْ

وغفى كلُ شيء

بهذي الخليقة،

إلاّ طريقاً إلى بيتـنا كالوقار،

وسيدة لم تزل خلف نظارتيها

تُقرّب وقت رجوعي..

وفي صمتها خيمةٌ من ضلوعي...

على مقعد العجلاتِ، يداعب أجفانها تعبُ العُمرِ

تغفو....

فتـنزلق العجلاتُ بلا كابح في المنام،

إلى أول العمر

ضوضاءُ حلوى تُطُش على قامة النهر

والرملُ كان شديدَ الطراوة والوحيّ،

والساعة المركزية حين تدقُ انتصاف النهار...

تـنامُ الأزقةُ والقبراتُ الصغيرة والمشمآتُ

وحتى المخافرَ تغفو

تكون الحكومةُ قد تعبت من عمالتها

كان آنئذ للعمالة قيلولةٌ

لم تكن قرشاً،

كلُ أوسمةِ السلمِ رُصّت على فكه

كان يومئذ للعمالة بعضُ الحياء

وللعهر بعض احتشام

جرعةً من جهنم هذي،

خلاصةَ حقلٍ من الكرم

قد توقظُ الفهمَ

مثل النواعير،

اشربْ!

ولا تتأسف على لحظة ذهبت

ذاهب أنت أيضاً قريباً بتذكرةٍ لا رجوعَ عليها

تزوّد قبيل الخروج النهائي

اسكبْ جميع الحقائق صرفا، كما كنت دوماً

رُبيب المفاتيح في جيبك الداخلّي

لكل الخمور،

العطور،

الصبايا...

النوايا...

وفتح حوار مع الصيف عن أجمل القُبرات،

تزور الشريط الحدوديّ،

زنرت خصرها بسلاح صغيرٍ،

كبرعم وردٍ

جميع الحقولٍ أتت خلفها، تتنفرجُ لاهثةً.

في كمال الأنوثة والعطر، والوعيّ تدخلُ في جيش ((لحد))

وتفرغ كامل وردتها..

المسدس وردة هذا الصباح الجنوبيّ

خذ وردةً – كسهى[٤] – أنت واذهب

تأنق بربطة عنق من الحقل

مرقوشةٍ بالندى..

رافقتك السلامة

إما مقرٌ العدو،

واما مقرٌ الخيانة

أو شئت هذا البناء المصفّحَ:

هذا المكان الملطّخ بالدم

للأنفراديّ

---

(٤) سهى بشارة- بطلة محاولة تصفية العميل لحد.

((للفرح)) الانفراديّ!!

والغرفتان يمينا لتخمير جسم بني آدمٍ،

والخزانات هذي، جواريرُ موتى،

اختنفوا بالحوامض،

أو باعترافاتِهم

شاور الوردة الآن

أدفع أمان المسدس...

أو أي قنبلة تشتهي كعذابكَ

عانقْ هدوء المساءِ الجميل،

واطلقْ

فديتك.. أحرف مسدسك العربيّ قليلاً

فإنهم دائماً في انحرافٍ،

ولا سيما لحظة الإبتسام[٥].

---

(٥) الكفاح العربي.

قراءة في دفتر المطر

في الليل

يضيع النورس في الليل

القارب في الليل

وعيون حذائي تشمُ خطى امرأة في الليل

امرأة ليست أكثر من زورق،

لعبور الليل

يا امرأة الليل!

أنا رجل حاربت بجيش مهزوم

ما كنت أحبّ الليل بدون نجوم

وأخيراً صافح قادتنا الأعداء

ونحن نحارب

ورأيناهم ناموا في الجيش الآخر

والجيش يحارب

والآن سأبحث عن مبغى

أستأجر زورق

فالليل مع الجيش المهزوم طويل

في مقهى الزيتونة شبّاك للغرباء

تبكي الموجة فيه

أهلي فيه

ورجال فيه يصيدون أصابع أطفال غرباء

ما زلنا بشراً ضعفاء

نبحث عن شوق لا يتبعنا كالشوق

ونحب ونكره حد الشوق

ورأيناهم ناموا في الجيش الآخر

والجيش يحارب

وبحثنا عنهم كالمبغى

يا شبّاك الزيتونه

أبحث عن مبغى

أبحث عن طين

يا زهرة بيتي!

يا وطني!

أأظلُّ هنا حزناً مبعَدْ؟!

أأظلُّ على خرسي

تابوت قصاصات مجهدا!؟

لا أعرف حتى خشبي

لا أعرف أين سيتركني الجزرُ

ولبل الماء على جرحي

لا أعرف كيف يمرّ الإنسان بدرب الدمع

لا أعرف أيأس

الخضرة دبَّت في خشبي والمنفى

وسمعت شموعاً تتلقح في قلبي

وصراخاً أهمل أعواماً..

لا يغضب لا يـبكي..

وتواطأت مع الأيام،

نسيت.. نسيت..

نسيت

وفاجأني

أنتَ؟

وفي هذا الليل!؟

أنا لا أعرف وجهك، لا أعرف من أنت

أعواما بعدك ما كان لبيتي باب

أعوماً ألهث،

ألقاك وراء النوم، وأنت سراب

فإذا أحببتك في زهرة بيتي، في وطني

وسمعت شموعاً تتوهج في قلبي

لماذا يعْتُمْ البيت،

وفيها الشيّاح وأهلي وأخي في مطر الليل !!؟؟

ولماذا استأجرتُمْ لغةً أخرى

وابحتُمْ وجه مدينتـنا لليل

وتركتم في الهجر حروفي

كأصابع أيتام في الشبّاك؟

كزوايا فم طفل يبكي

من أقصى الحزن أتيت

لأغلق أبواب بيوت المهزومين

وأبشّر بالإنسان.. وبالإنسان.. وبالشيّاح

وبمن لا يملك سقفاً

سيكون له سقفٌ في هذي الدنيا

وينام

لكن واخجلي من بيت مهزوم

وسيخجل من باعوا لغتي،

فأنا مكتوب في الأرز

وفي العسل الأخضر في التين

وأنا أطعم بالسُّكَّر نخلات الكوفة

والأطفال على رابع جسر في (العشّار)

أنا لا أملك بيتاً أنزع فيه تعبي

لكني كالبرق أبشّر بالأرض

وأبشّر أن الأمطار ستأتي..

وستغسل من لوحتـنا كل وجوه المهزومين

وستغسل بالمطر الدافئ جنح النورس

وبيوت أحبتـنا

والحرف الأول من لغتي

* * *

يا زهرة بيتي يا وطني

أمطرني

حزن بلادي أمطرني فوق الماء؟!

وخضار أصابع أطفال غرقى

تـنمو في الطحلب أياما

الماء طريق الغرباء

الماء طريقه عرسي

والزهرة والرشاش وخبز الصمغ

عشاء النجمة في الليل، وعشائي

الماء طريق للماء

وبيوت لأندرس فيه

وننشّف خديه إذا ابتلا

ونرافق فانوس النوم

من أيام يا زهرة بيتي،

فارقت نعاسي

وتواطأت مع الأنهار، وكل جسور الناس

إليك.. إليك.. ونسيت

نسيت بأنك ماء في وطني

....

....

....

في الطرقات المشبوهة بالإنسان وزهر الصبر

اتسخت روحي

يا منقذ واتسخت روحي

وتعذب حتى وسخي

عانيت لأنك تعرفني في الغربة

عانيت لأنك في ثقة متعبةٍ كالشك

وتعاملت مع الغربة

عانيت.. وعانيت.. وماذا تدري؟!

ولماذا تدري

بالأمس ذهبت على وجهك بؤس

صغار الأسماك

وسألت.. سألت،

وعنك سألت الصيادين

سألت، لماذا لا تدري

وحملت صليبك، لا تتركني في النسيان

لا تتركني

فالشك سيقتل فيّ الإنسان

لا تتركني، أفلستَ المنقذ؟!

أفلستَ رفيق المتسخين؟؟!!

ولأجل صليبك أورق في الليل على الأبواب

ولأجل صليبك،

في حفر الليل أنام مفتحة عيناي مع الأسماك

ولأجل صليبك نمت مع المبغى

ووجدت صليبك يبكي ندما في الشبّاك

لا تتركني،

فأنا وحدي

والناس هنا في غربة

* * *

دمشق

دمشق عدت بلا حزني ولا فرحي

يقودني شبح مضنى إلى شبح

ضيّعت منك طريقاً كنت أعرفه

سكران مغمضة عيني من الطفح

أصابح الليل مصلوباً على جسد

لم أدر أيَّ خفايا حسنه قدحي

أسى حرير شآمي يداعبه

إبريق خمر عراقي شج نضج

دفعت روحي على روحي فباعدني

نهدان عن جنة في موسم لقح

أذكى فضائحه لثماً فيطردني

شداً إليه غريرُ غير مفتضح

تستقرئ الغيب كفي في تحسسه

كريزة فوق ماءٍ ريّق مرح

يا لانحدار بطئ أخمص رخص

ولارتفاع سريع طافح طمح

(ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه؟)

نهد عليّ ونهد كان في سرح

هـــذا يطـــاعنني حتـــى أمـــوت لـــه

وذاك يمــسح خــدي بــالهوى الــسمح

كــــان زهــــرة لــــوز في تفتحهـــــا

تمــجّ في قبــضتي بـــالعنبر الـــنفح

دمــشق عــدت وقلــبي كلــه قــرح

وأيــن كــان غريــب غــير ذي قــرح

هــذي الحقيبــة عــادت وحــدهاوطني

ورحلــة العمــر عــادت وحــدها قــدحي

أصـــابح الليـــل مطلوبـــاً علـــى أمـــل

أن لا أمـــوت غريبـــاً ميتـــه الـــشبح

يـــا جنـــة مـــرّ فيهـــا الله ذات ضـــحى

لعـــل فيهـــا نواســـيا علـــى قـــدح

فحـــار زيتونهـــا مـــا بـــين خـــضرته

وخـــضرة الليـــل والكاســـات والملـــح

لقــد ســكرت مــن الــدنيا ويــوقظني

مــا كــان مــن عنــب فيهــا ومــن بلــح

تهــر خلفــي كــلاب الحــيّ ناهــشة

أطــراف ثــوبي علــى عظــم مــن المــنح

ضــحكت منهــا ومــني فهــي يقتلــها

ســـعارها وأنـــا يغتـــالني فرحـــي

عروس السفائن

لم يبق شيء لم يطبق على مضغة قلبي

كم هي مخيفة هذه القاذورات؟

تتفتح في روحي نبوءات غريبة، يتفتح بنفسج كثير

يقظ لحمي على طاولة التشريح مدهوش من كثرة

المباضع والمخالب والأضواء القذرة والوجوه الغريبة

أية غرفة عمليات لا إنسانية هذه!

بعيداً عن الزمن المبتلي يا سفينة

إن قليلاً من الوزر

أمتعتي المزدهاة

ولن تثقلي بالقليل

سأبقى المصابيح موقدةً في بهاء الصباح

مصالحة بين صحو الصباح وصحوي

وأبقي الرياح دليلي

وأسأل عن نورس

صاحب الروح في زمن البرق

يوم المحيطات كانت تـنام بحضني

نشوى

ومازال ثوبي يخضَّر من مائها

يا لـه من زمان قضى بين ألف من السنوات الـفتية!

فوانيس في عنق المهر، علقها الاشتهاء

ونجم يضيء على عاتق الليل

زيّت نخل الهموم

واعتق من عقدة الشاطئين

رحيل السفينة

من سفن لا تضاء

وناحت مزامير ريح الفناء

فأوقفتُ ربانها المستحيل

فذاق الرياح

وأطربه الابتلاء

وسادن روحي وقد أطبق الموج

حتى تجرحها،

إنها وجدت نفسها بالسفينة

من ينتمي هكذا الانتماءُ

* * *

يا وجد! يا وجد

يا وجد! ما كنت كاليوم دون حماس

وما ظل في خاطري الآن

إلا النشيج اللجوج من اللجج النيلجية

والزبد الأرجوان المعشق في غسق باللآلئ

هو الزبد الأرجوان المزخرف بالليل

والقمر الآن

من زهرتي برتقال

تغيرت مستعجلاً بها الفرح الضجري

وأصبح محشد أعزبة سطح قلي

ينحن قبل مغيب الهلال

عروس السفائن!

إني انتهيتُ على سطحك الذهبيّ

ورأسي إلى البحر تعبى،

يطوحها الموج ذات اليمين وذات الشمال

لقد ثقل الرأس بالخمر والزمن الصعب قبل قليل:

وانهكني البحث في زمن للطحالب

عن طحلب بالأقل،

يصيح معي في الهزيع

إلى جهة المستحيل

لدى الله كل النوارس نامت

ولم يبق إلاّ سفينتك الآن

ميهورة بالشمول

على وجهها من رذاذ الغروب

ومن عرق الله في الأرخبيل،

فأين سيلقي المراسي المساء؟

بنيت بيوتاً من الماء

هدّمها الجذف

كيما يتم البناءً

ومنذ نهارين في وحدة المتـناقض،

هذي السفينة

يدفعها ويدافعها الابتداء

يكاد السكون لما في الشراع من الاندفاع

طبيعته يستمد

سليل السفائن واللانهايات

يالانتشائك!

إذْ يهزج البحر بالزُبد الزئبقي

ويزهو الزُبرجد واللازورد

أيا لا زوردُ!

أيا لازورد! أيا لازوردُ

إذا هزج البحر فالكونُ زاءٌ منونةٌ

فوقها شدّة

فوقها

ثم مدٌّ

وللشدّ من بعد ذلك شدّ

وللشدّ شدٌّ

وإني على الحبل من مركبي في الظلام، أشدُّ

وعلى دفتيّ في الهزيع

كما خصر أنثى أشد

وتـندمل الآن يا صاحبي!

فالنجوم هنا لا تُعدُّ

وأنت كما خلق الله في نشوة الخلق بين الصواري

يؤجج ما قد تبقى من الشيب

برقٌ

ويعبث فيما تبقّى من القلب رعدُ

عجيبٌ صراخك في غمرات البنفسج والكون

إذْ يصل العتبات الأخيرة في صبوة

لايندٌّ

عروس السفائن!

لا تتركيني على أمقت الساحلين

يجنٌّ جنوني

إذا رن في هدأة الليل بعدُ

أهيم إذا رن بعدُ....

عروس السفائن!

لا تتركيني لدى حاكم وسخ يستبدٌّ

لقد كفّت الخمرُ عن فعلها فيَّ

مهما تداويتُ

وأزبدُ بالصبر جلدُ...

أحب الحروف لها شهقة بعدها،

لا تـندٌّ...

وما العاشقون سوى شدّة الله أسرارها لا تحدُّ

فإن ساح صمغ البنفسج في موهن البحر..

صارت تـنزّ

وصرت ألِزُّ.. ألزُّ ألزُّ...

عروس السفائن والبرد في ألقٍّ الصبح، خزُّ

وليس يسافر في الفجر

إلا الأوزُّ

رسى السأم السرمدي بجسمي

ولي سوى غامضات البحار التي تستفزُّ

أصيح خذيني

لأسمع أجراسها، إن برقاً بقلبي يلزُّ

أنا عاشق أيهذي البحار أجراسكنّ،

فقد أوحشتـني الشوارع،

مما بها من رؤوس تُجزُّ

وفاضَ وفاضَ .. الإناء..

بنيت بيوتاً من الوهم والدمع

أين هو العشق ؟ أين هو العشق؟

تمّ، لقد تم.. تم البناءُ

أحاور روحي، وكل حوار مع الروح، ماء

بكى طائر العمر في قفصي

مذْ رأى مخلب الموت ينزل في صحبه

ويكف الغناء

متى أيهذي العروس ! يجيء الزمان الصفاءُ

فقي القلب مملكة للدمامل

والجسد الآن في غاية الاعتلال

خذيني لأقرأ روح العواصف

حين تعانق سخط الليالي

خذيني فإن العصارة تغرق بالانحلال،

خذيني .. خذيني،

فما البحر في حاجة للسؤال

خذيني،

فليس سوى تعب البحر يشفي وينقذ من فقمات المقاهي

كفى لغطا عاهراً أيها الفقماتُ

كفى يا ضفادع! هذا النقيق الدنيء

فأنتم سباتٌ !!

سأصرخ ـ

يابحر! يابحر! يا يحر! يا رقصُ

يا ربّ! يا عتمات

زحار بكل التقاليد

لايتبع البحر بوصلةٍ بل تتابعه البوصلاتً

لقد كنت أحلم

وعياُ

وفي حلم بالذي سوف يأتي

وفاء

ومرت جنازة طفل على حلمي بالعشيّ

يراد بها ظاهر الشام

قلت أنانية كربلاء؟!!

فقالوا من اللاجئين

وهل ثم أرض تسمى لجوءاُ

لندفن فيها

وهل في التراب كذلك،

مقبرة أغنياءٌ

ومقبرة فقراء!؟

تلفّت في ظاهر الشام

أبحث عن موضع

لا يمت لغير منابعه

ندفن الطفل فيه

وقد دب فينا المساء

وكان على أرض نظام الحوانيت

يدفعنا في الغروب

وكان يشار لنا غرباء

وحين دنوناً لمقبرة

ليس من مالكين لها

جعجع الحرس الأموي بنا

فرزت الخليفة

بل يفرز الخلفاء

وكان نسيم الطفولة ينضح،

مما سقوف الجنازة

بين المخيم والشام تـنصتٌ

أين اللقاء!؟

جنازة من هذه؟

ولماذا بلا وطن

وكلاب الخليفة تـنبح من حولها

والمخيم يحملها راكضاً

والشواهد تعرقُ

فلت: أعرقي

واكفهر على تلةٍ البعيد الشتاءُ

وهذي الجنازة أصغر من إصبعي

فادفنوها..

ادفنوها..

وأم الجنازة يكسرها الانحناء

وجدّ الجنازة أعمى يتأتئ، والعين يرشح منها على الصمت ماءُ

وقيل لنا مبلغ يحسم الأمر، فاجتمع الفقراءُ

فللمال ـ أفعاله، يستفزُّ

هنا دفن الطفل في آخر الأمر

يا أرض غزة فاسترجعيه

لئلا مقابرهم تستفزُّ

وليس يهاجر في موهن الليل، إلاّ الأوزُّ

عروس السفائن

إن المراكب إن لم يكن فوقها

عالم بالبحار تـنزُّ

ويلقي بها الليل منهكةً، يتـناوح فيها النئيج

ويرتفع البحر، جيما عجيبا،

إذا ما تصاعد في الليل منه الضجيج

وما نقطة الجيم إلاّ البقيةُ من جنةٍ

أنهك الحبرَ فيها الأريج

وأسأل هل نزل الطفل في قبره لاجئاً بين أمواتـنا

لكأن اللجوءَ مصيرٌ لجوجُ

في الرياح السيئة يعتمر القلب

الأساطيل... إيه الأساطيل لا ترهبوها

قفوا لو عراة كما خلقتم

وسدوا المنافذ في وجهها والقرى والسواحل والأرصفة

انسفوا ما استطعتم إليه الوصول من الأجنبي المجازف

واستبشروا العاصفة مرحباً أيها العاصفة

مرحباً ... مرحباُ .. مرحباً أيها العاصفة

احرقوا أطقم القمع من خلفكم

فالأساطيل والقمع شيء يكمل شيئاً

كما يتـنامى الكساد على عملة تالفة

بالدبابيس والصمغ هذي الدمى الوطنية واقفة

قربوا النار منها

ولا تخدعوا .. تتغيرُ

لا يتغير منها سوى الأغلفة

مرحباُ .. مرحباً .. أيها العاصفة

أيها الشعب احشوا المنافذ بالنار

إشعل مياه الخليج

تسلح وعلم صغارك نقل العتاد

كما ينطقون، إذا جاشت العاطفةْ

لا تخف .. نصبوا حاملات الصواريخ

ضع قبضتيك على الساحل العربي

وصدرك والبندقية .. والشفة الناشفة

ربٌّ هذا الخليج جماهيره ..

لا الحكومات .. لا الراجعون إلى الخلف

لا الأطلسي ولا الآخرون وإن نضحوا فلسفة

لا تخف .. إننا أمةٌ

لو جهنم صُبَّت على رأسها .. واقفة

ما حنى الدهر قامتها أبداً

إنما تـنحني لتعين .. المقادير إن سقطت

أن تقوم تتم مهمتها الهادفة

يا حفاة العربْ!..

يا حفاة العجم !

ادفعوا الهادر البشري

وضكّوا على عنق السفن الأجنبية

الووا مدافعها في ادعاءاتها الزائفة

يا جنود العرب!..

يا جنود العجم!

أبها الجند

ليس هنا ساحة الحرب

بل ساحة الالتحام لدك الطغاة وتصفية لبقايا عروش

توسخ في نفسها خائفة

حشّدوا النفط .. فالنفط يعرف كيف يقاتل حين تطول الحروب

وقد يتقن الضربة الخاطفة

أيها الجند !..

بوصلةٌ لا تشير إلى القدس مشبوهةٌ

حطموها على قحف أصحابها

اعتمدوا القلب، فالقلب يعرف مهما الرياح الدنيئة

سيئة جارفةْ

* * *

اجمعي أمة الحزن واستعمليها المفاتيح

دهراً فدهراً

فمهما بدت للوراء تسير بها النكبات

هي الأمة القادمة

شفتاي امتداد لجرح بها كلما صاح صحت

فأمي هي النخلة الحالمة

وأمي هي الأنهر الحالمة

وأمي التي علمتـني على الصبر

آنئذٍ علمتـني على الطلقة الحاسمهْ

* * *

يا جهيمان.. ياجهيمان

حدَق فما يملكون فرائصهم

نفذتَ – نفذتَ .. زرعتهم قرحاً

نفذت نفذت بعيداً فأصلابهم عاقمة

فإذا طوفوا كان وجهك

أو سجدوا فالدماء التي غسلوها

تسد خياشمهم ومناخيرهم وقلوبهم الآثمة

لم يناصرك هذا اليسار الغبي

كأنّ اليمين أشد ذكاءاً

فاشعل أجهزة الروث بينا اليسار

يقلب في حيرة معجمهْ

كيف يحتاج دم بهذا الوضوح

إلى معجم طبقي لكي يفهمهْ؟

أي تفو بيسار كهذا .. أينكر حتى دمهْ؟!!

ويا ناصر بن سعيد..

إذا كنت حيّاً بسجن

وإن كنت حياً بقبرٍ

فأنت هنا بيننا ثورة عارمة

أيها الناس هذي سفينة حزني

وقد غرق النصف منها قتالاً

بما عزقت عائمة

وشراعي البهيَ شموخي

تطرفت وعياً وأدرج في كل يوم كأني في قتلهم قائمه

لا أخاف وكيف يخاف الجسور بطلقته طلقة كاتمهْ

قدمي في الحكومات

في البدء.. والنصف .. والخاتمهْ

حاكم وحمت أمه عملة أجنبية في يومه

فأتى طبقها

وانقلاب بكل الحبوب التي تمنع الحمل يزداد حملا

وسلطنة ربعها لحية وثلاثة أرباعها مظلمهْ

ينطلق الجوع منذ ولادتـنا

ويشب بنا الموت والأتربة

وأجانب مهما نقاتل

والحاكمون الخصايا

هم العرب العاربهْ

* * *

ما لها تتثاءب هذي الجماهير

تهتف وهي منومة

زلزلي .. زلزلي .. واكفهري .. اكفهري

اكفهري لا أجمل من أمة غاضبهْ

أمسحيهم فهم حاكمون بغايا بأفواههم

والشريف الشريف شهامته سالبهْ

أركليهم فأقدارهم يركلون وأقدارنا القوة الضاربهْ

جسر المباهج القديمة

(اتفق القراء على

تسميتها تل الزعتر)

ملك العمق ..

أزور نجوم البحر

أزوّجها بنجوم الليل

أطيل لدى موضع أسرار الخلق

زياراتي

* * *

سوف أحدثكم في الفصل الثالث عن أحكام الهمزة

في الفصل الرابع عن حكام الردّة

وأما الآن فحالات العالم فاترة

ملل يشبه علكة

لصقته الأيام بقلبي

* * *

يا صاحب هذا الكلك المتعب

كنت تسميه سفينة عشق

أنّى أوقدت سيفقس هذا البيض الفاسد

أوساخاً

أَلَدَيكَ فوانيس؟

زيت ما لمسته يَدانْ؟

روح تبصر في الزمن الفاسد؟

أوقد بحّار البحارين قناديل سفينته

أبقاها خافتةً

بحار البحارين ومن جمع اللؤلؤ والأضواء وأصوات البحر

بخيط لحبيبته

أبقاها خافتةً

تملك أحلى ميم أعرفها

ولها جسد مزجته الآلهة الموكولة بالمزج

فبالغ بالطيب وأربى بالحسن عليها . ارتبكت . بكل عطور الخلق

* * *

توضأت بماء الخلق،

أخذت بهذي القيثارة

دوزنت عقوداً أربعةً

وشددت على وجع المفتاح الخامس والسابع

فاعترض النحو البصري عليَّ

كذاك اعترض النحو الكوفي

من لا أعرفه يعرف نحواً في الشعر

دع الريح يهدهدك الهدهدة الاهداء

نذرك كان كثير الشمع الأحمر والآس

ومرت كل شموعك من تحت الجسر

وأوغلت كثيراً في البحر

فأين البصرة؟!

صحيح أين البصرة؟

البصرة بالنيات

لقد خلصت نياتي

وتسلق في الليل عمى الألوان عليها

أين البصرة

أين البصرة مشتاق

بوصلتي تزعم عدة بصرات

منذ شهور قلبي لا يفرح إلا بين النخل

أتسير ببوصلة؟!

حين يكون لذلك فائدة

ما دخت؟!

إذا كنتُ بلا أمل

يا صاحب هذا الكلك المتعب

أنت تسميه المركب، لا بأس عليك

تفاءل ما شئت

أطلق ما ترتاح من الأسماء عليه

* * *

وأضاف قميء عفن كان يوقوق بين القوم

وكنت تفرغ شحنتنا الثورية!

يا ابن الشحن السلبية!

بطارية حزبك فارغة ماذا أعمل

والتفت الآخر لفتة من فاجأه الحيض وقال:

تفاهمت مع السلطة تشتمها وتورطنا

إربأ أن تسمع واتعذ الله

فمهما قيل فأنت تُعلَّمُ مثل نبيَ

سلمك المفتاح على الذمة بحّار البحارين وإعطاك السعفة

* * *

ولكن أين البصرة يا مولاي

وما شأني بالبحر

- لا يوصلك البحر إلى البصرة

- بل يوصلني

- لا يوصلك البحر إلى البصرة

- بل يوصلني البحر إلى البصرة

- قلنا لا يوصلك البحر إلى البصرة

- أحمل كل البحر وأوصل نفسي

أو تأتي البصرة إن شاء الله

بحكم العشق

وأوصلها

* * *



رباعيات

طائف قد طاف بي في غيهب في السحر

ساكباً في عدم يصخب كأس العُمُرِ

صحت يا مولاي ما هذا الذي تفعله

شزر المولى فذابت مهجتي بالشزر

* * *

قمت مذهولاً إلى إبريق خمري ثملا

علّني أطفئ نيران ارتباكي بالطلا

سكب الابريق في كأسي نضوباً صامتاً

آه مولاي فراغ الكأس بالصمت امتلى

* * *

انقر الكأس إذا ما نضبت واشرب رنينْ

فهي ما ضمّت سوى خمرتها عبر السنينْ

فإذا أنَبَكَ العشاق يا عشق فضجات

عصافير على غصن من الورد مكينْ

* * *

تبتلي العاشق بالخمر وبالحزن كثير

زد من الاثنين فالصحو من العشق خطير

أنا لولا أعشق الدنيا كما أعشق لقياك

قطعت الدّهر في الغيب أطير

* * *

ما لبعض الناس يرميني بسكري في هواك

وهو سكران عمارات يسميّها رضاك

يا ابن جـيـبـيـن حراماً إنني

أسكر كي أحتمل الدنيا التي فيها أراك

* * *

مَرَّ ريقي بحروب الجهل من كل الجهات

أفما تملأ إبريقي بساتين الفرات

قلقاً أدعو شتاتِ الطير يا أحبابُ لموا

الشمل فالقاتل لا شيء سوى هذا الشتات

* * *

قصيدة صفر العمر

ماذا يمحو

من ذاكرتي صفر العمر

وبضع سنين

ماذا يمحو

من ذاكرة البستان

زهور اللوز

تدق الزهرة بالأخرى

يمتلئ البستان رنين

في ساقية كنعاس العشق

دفعت زوارق صمتي

كلمني الزنبقُ

كلمني الماء

كلمني الله على خد التفاحةِ

في شيء

كلمني الله

يا عاشق شاركت بصمتي

عملٌ صمتي

يا عاشق

فاعمل!

أعطاني عدماً

من خلف ستار ليس يشف

أنا سأشف

يراني فأراه

إن شف المدنف شاهد مولاه

رأيت خيال البادئ بالخلق

على نهر المخلوق حزين

ماذا يمحو سكر الغريد

بزهرة تين!!!

يا عاشق للبلبل سلّم صوتٍ يبلغني

ياعاشق!

سدد قلبك للمجهول

توهمني

لتراني

يا عاشق!

لا يصطاد سوى لحم الطير، المطلقُ نارْ

إن كنت تريد قلوب الطير

فسدد نارك للطير

ولا تطلق

للمشتاق إليه

بمقدار الشوق إليه

حنين

* * *

دخل الباب من صيف البستان

إلى شتويه عمري

كان البلبل إياه!

أعاد إلى القلب

كرائحة الشوك الرطب

نواياه

رتب في آنيتي المهجورة

أسماء الزهر

أمير الروض رآه

مالك أسماء الزهر رآه

عاقبه المغرورُ، أمير الروض

بجرةِ منقارٍ

جعلت منقار البلبل نايًا

فاحتدم الغيظ بمولاه

احتزّ لسان البلبل

من حالةٍ سكر نادرة.

خارج بستان العشق رماه

* * *

ماذا يمحو من ذاكرة البلبل

إن لسان العشق

احتز بسكين؟!

يا عاشق

صمْتُ البلبل يبلغني

يا عاشق

إن غنيّت لبستان أضيق من صوتك

ضاق المحدود بما وسعت عليه

يا عاشق

حز لسان البلبل

حز في ذاتي إن غردت بعينيك

وكابرت بجرحك

تصبح ذاتك بستان هواك

ولحمك يذبح سكين

ماذا يمحو من ذاكرتي

أصفار العمر

وضيق حواصل أصحاب البستان

وأضغاث سنين؟!

اصبر يا طير

فما يبقى إلا ربك والشدو

ورائحة السكرة

بالسوسن والنسرين

اصبر

البلبل ودع بستان الأمس

ومن فيه

وما فيه

جن أمير الروض

البائس!

والجدول وزّع في البستان

مرايا للشدو

فلم تتحمل حوصلة السيد

كانت أصغر من فنجان

منع الماء وغطى البستان بسقف

فالماء يجيء من الله

إذا منع النهر السلطان

أعطى الغربان مدياً وبنادقْ

واستـنجد أيضاً

بقيادات البق الوطنيّ

وأرض الروم

صعد الفجر كرافعة الفولاذ

ثقيلا

عدة طلقات سمعت

ممنوع أحد يسمع

فليقل السامع

لم أسمع

فليقل السامع للقاتل

ما يرضيه

ممنوع أحد يدخل شيئاً في هذا الصمت

يذكر هذا المغرور

بماضيه

ممنوع تتذكر أسماء الماء

ممنوع أي هواء

ممنوع حتى ذكر الواحات بهذي الصحراء

يا عاشق إن سدت نفسك بالغربان

ولم يبد على الليل سيرحل

قطر نفسك خمراً

اجمع نقطة ضوء في غيرك فجراً..

اجعل من صبرك ... جسراً

وابحث في الطين

عن الطين

يا عاشق إن الأيام

وإن لاحت ساكنة

لطواحين

يا عاشق إن كذب المعشوق عليك

فصدق نفسك

اذهب للزهرة لا تتردد

اغطس في كأس حمياك

ولا تصحُ

عش حبك

لا تفهم ما الحب ..

فإن الفهم بهذي الأيام سكاكين.

* * *

مرثية لأنهار من الحبر الجميل

قيلت في رثاء الرسام الفلسطيني

المناضل ناجي العلي.

يسافر في ليلة الحزن

صمتي

غيوماً

تـتبعته ممطراً

واشتريت دروب المتاعب

ألوي أعنتها فوق رسغي

ليالي أطول من ظلمات الخليقة

((خال سوى من فتات من الصبر))

في ركن زاويتي

والدجى ممطر

* * *

أأنت الوديع كساقيه من خبايا الربيع

قتلت؟!

وغص بنعيك من قتلوك

كأنك مقتلهم .. لا القتيل

* * *

لم استفردوك بقبر عدو، وراء الضباب ؟!!!

وفيم تساءلت ذات مساء من الحزن

عمن سيأخذ ثأرك!

هل كنت تعرف أن الرجال قليلُ ؟؟؟

هل التصفيات بديل عن الأرض

والفشل المستمر؟!

وأي مقايضات تلك

خير الرجال

بشر النقود

ومن شركاء الجريمة؟!!

ما هذه المسرحية بالدم والنار

تبكي التماسيح فيها؟!

لقد طالت المسرحية

والصبغ سال على أوجه البعض

* * *

ألا ننتهي ؟؟

صار صوت الملقن

أعلى من البهلوان المهرج فوق رؤوس الجماهير

هل سوف نخرج مما على نفسنا

نتضاحك

أم ستعاد الفصول؟؟!!

يقولون:

يا زهرة الحزن! مت

وضاع أريجك خلف الضباب

وأغلق عمر جميل

من الحزن والاحتجاج الطفولي

عمر حكيم من العشق

تحضن في جانحيك فلسطين دافئة

كالحمامة

تطعمها بشفاهك تسمع نبضاتها تتضور قبل

تضورها

تحرث الأرض .. والطب . والصيدليات..

تبحث عما يداويكما

* * *

ترسم صمتاً نظيفاً

فإن المدينة تحتاج صمتاً نظيفاً

وترسم نفسك متجها للجنوب

البقاع

العروبة

كل فلسطين

* * *

((قل هي البندقية أنت))

قصيدة من وحي بطولة الشهيد الفدائي

خالد اكر الذي هبط بطائرة شراعية

في قلب ثكنة للجيش الإسرائيلي

الدجى والمدى جنحهُ

نجمةٌ للصباح الجميل

كرياح الأعالي اختفى

ما أحست به غير زيتونة

ألف قلب على كل غصن بها

في الجليل

شفّرته إلى الأرض

فارتفعت

قبلت قدميه

لقد جاء في الزمن المستحيل

يمطر الجو من غضارته والشباب

ويلتمس الله مرضاته

ساحباً بالأمان إلى آخر

الازرقاق السماوي

اهبط عليهم

فإنك قرآننا

قل هي البندقية أنت

ما لك من كفؤ أحدُ

* * *

يركضون بلا أرجل

وتدلت خصاهم من الرعب

جمعت فيها الاصابات

أين تعلمت تخصي الجيوش

وكيف اقتلعت المعسكر يا ابن ثلاث وعشرين

الله أكبر والبندقية

عاد علي إلى باب خيبر

سجّل:

خلايا العروبة تنقل تلك الشجاعة

جيلاً فجيلْ

لا تزال تحوّم ملء الفضاء

فكل عقاب يخيّل أنت

وكل دويّ يفر الجنود كأنك في أذنيهم

بدأت المباراة بين السماوات والأرض

هذا هو الدرب

فلتتبارَ الفصائل جواً وبحراً وبراً فصيلا فصيل

لست إلا فلسطين مهما انتماؤك

دم الشهادة ليس يجَّيرُ

نحن نجيَّرُ للدم

كل البلاد تجيّرُ للدم

كل الزمان وهذا قليل قليلْ

* * *

خلاصة عامة

❖ يتمتع شعر النضال السياسيّ عند النواب بدرجة عالية من الشمول في الرؤية الشعرية المؤسسة على جذر تاريخي عميق ومهاد اجتماعي محدد طبقياً وسياسياً.

❖ يتمتع شعر النضال السياسي عند النواب بالانسجام والتجانس الشعري والشعري الحياتي الأمر الذي يؤكد صدق التجربة الشعرية النوابية:

فالنصوص التي بين أيدينا من شعر النواب تصدر عن فكر منسجم، وما ورد فيها من أطروحات يسند بعضها بعضاً، وتصب في مجرى رؤية واحدة..

أما حياة النواب فهي قصيدته الأروع: فالنواب منسجم حياتياً مع شعره: إنه مشرد مطارد، شعره يرفض المواقف السياسية المشبوهة وهو يرفض العطاء الذي يمكن أن يقدم إليه من الجهات صاحبة هذه المواقف، إنه مع الفقراء وهو فقير، لا أعرف له شعراً يمدح حاكماً أو يتملق نظاماً ولا أعرف له مواقف حياتية من هذا الطراز.. إنه هو هو: النواب الشاعر والنواب الإنسان.

❖ يتمتع شعر النضال السياسي عند النواب بالوضوح والجرأة: وقد اقتضى هذا الوضوح الجمهور العريض الذي يطمح النواب إلى التواصل معه. كما اقتضى الجرأة عوامل متعددة منها: طبيعة النواب الشخصية، وطبيعة المواضيع التي يتناولها، وطبيعة المرحلة السياسية التي يتعامل معها. يتفرع عن هذه الجرأة بذاءة المفردات التي يستخدمها في بعض المواضع، وهذه مسألة نفهمها ونذافع عنها على النحو التالي:

١- إن المفردات التي ندعوها ظلماً بذيئة هي مفردات من اللغة العربية وجدت لتستخدم في مواضعها، كما يرى الجاحظ، وإذا وجدنا من يتحرج من استخدامها فلنعلم أن ليس لديه من الأدب إلا هذا التحرج، كما يرى الجاحظ أيضاً.

٢- هذه المفردات المعنية وسواها أكثر حدَّة استخدمها شعراء اللغة العربية الكبار وأدباؤها على مدى العصور . فقبل مظفر النواب استخدمها المتنبي وبشار بن برد ودعبل الخزاعي وأبو نواس وغيرهم.

٣- العاطفة عنصر مهم من العناصر التي يقوم عليها الشعر.. وحين تعاني هذا العاطفة من القمع والكبت فإن آلية التعبير عنها تجمح إلى تطرُّف أحد أشكاله الشتائم.

٤- الجزاء من نوع العمل .. والكفر في مكانه تسبيح.. وطبيعة المعبر عنه تملي إلى حد كبير طبيعة التعبير.. لقد تعامل النواب مع حالات من التسفُّل تستحق، في نظرنا، هذا اللون من التعبير.

❖ شعر النضال السياسي عند النواب يمثل شهادة غنية الدلالات على الواقع الذي أفرزه.. بل هو المكمل الحقيقي لصورة الواقع: إن أبا العتاهية جزء من صورة لا تكتمل إلا بأبي نواس: إن ساسة لا يأتيهم الباطل من خلفهم ولا من بين أيديهم،ولا يسألون عما يفعلون، ومنزهون إلى حد السماح بنقد كل شيء عدا شخوصهم الكريمة، هؤلاء جميعاً جزء من صورة الواقع التي لا تكتمل إلا بشاعر يجلدهم بلسانه ويغمرهم بشتائمه...إنهما جزءان يشترط كل منهما الاخر.. هات غير هذه الظروف وخذ غير هذا الشاعر.

❖ شعر النضال السياسي عند النواب يؤمن بالتخريب ويرى في التخريب مقدمة حقيقية للبناء من جديد. يقول في ختام الحركة الأولى من الوتريات:

((سيكون خراباً.. سيكون خراباً

سيكون خراباً.. سيكون خراباً

هذي الأمة لابد لها أن تأخذ درسا في التخريب))

وفي الحركة الثانية يقول:

((اللهم ابتدأ التخريب الان

فإن خرابا بالحق

بناء بالحق))

ليس في ما بين أيدينا من شعر النواب أي تنويه أو إشادة بأية مواجهة نضالية رسمية مع العدو. وكأن مظفر النواب لا يقيم وزنا لأي شيء من هذا القبيل..

فهو لا يمجد إلاّ الأعمال النضالية الفردية أو شبه الفردية. ويكاد النواب أن ينفرد بهذا الموقف الذي لا يلحظ لدى سواه من الشعراء العرب إطلاقا.

مصادر ومراجع الكتاب

١-مظفر النواب الأعمال الشعرية الكاملة.

٢-مظفر النواب حياته وشعره، باقر ياسين.

٣-مظفر النواب شاعر المعارضة السياسية، عبد القادر الحصني- هاني الخير.

٤-مظفر النوّاب بين الجرح العراقي ونهر الأسئلة، هاني الخير.

٥-مجلات عربية متفرقة اشرنا إليها في هوامش هذا الكتاب.

٦- لقاءات شخصية مع الشاعر مظفر النواب.

الفهرس